السحاب الأحمر

﴿ تكملة على ﴾

رسائل الأحزان

في فلسفة الجمال والحب

بقلم

مصطفى صادق الرافعي

المطبعة السلفية - بمصر

سنة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م

مؤلفات صاحب الكتاب

تاريخ آداب العرب الجزء الأول في تاريخ اللغة وروايتها

» » » » (الثاني) في إعجاز القرآن

» » » » (الثالث) في تاريخ الخطابة والأمثال والشعر «تحت الطبع»

ديوان الرافعي — ثلاثة أجزاء

» النظرات

كتاب المساكين

حديث القمر

رسائل الأحزان (في فلسفة الجمال والحب)

النشيد المصري الوطني وتاريخه في «الطبعة الثانية»

نشيد سعد باشا زغلول وتاريخه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لما كتبتُ « رسائل الأحزان » في فلسفة الجمال والحب » كنت في تدبيره والرأي فيه كمن يُؤرِّخ عهداً من شبابه بعد أنْ رقّتْ سِنُّه [1] وذهب يقينه من الدنيا ولم يبق الا ظنّه ، فهو يكتب والكلام يَحِنُّ لَدَيْه ، والقلم يئنُّ في يديه ، وكل وصف جاء به من الشباب قال رحمة الله عليه . . .
وكنت أتعلق بأطراف اللغة التي فرَّتْ من الحياة معانيها ، وذهب نورُها وظلامُها في أيامها ولياليها ، فكان قلمي هو الذى يكتبها ولكنَّ قلبي هو الذى يُمْلِيهَا .

لغة الأَحلام التي تعبِّرُ عن الحقائق على نحو ما وقعت

(١) شاخ وهرم ومتى بلغ الانسان هذه السن كانت لذات الدنيا كلها ظنونا في نفسه ، وبعد عن يقينها وحقائقها بعده عن شبابه وقواه

يوماً لا على نحو ماتقع كل يوم ، فهي تترجم للحياة في زمن من العمر تاريخَ هذه الحياة نفسِها فى زمن آخر ، وتُرْجم الانسان كله لبقيته الباقية ، وتأتي في الكلام لغير جِدال ، كما تأتي الأَجوِبَةُ القاطعة على أَسئلتها

وهي لغةُ الماضى التى تحملُ ماحَمَلْتَ عليها لانها صافية كالحق منزَّهةٌ عن الرَّيْب كالواقع ؛ فاذا وصفتَ بها الخير كانت كالمرآة المَجْلُوَّة أشرق فيها وجه جميل فملأ صفاءَها جمالاً وفتنة ؛ واذا صورتَ بهــا الشر كانت كالمرآة ووجه الزِّنجي يملأها سوادا ولــكنه لا يَطمِس على شعاعها وتضيف الى سواده لَمعَانَ نورها مادام فيها

« * »

كتبته بلغة الأَحلام ؛ والأحلامُ هذه انما هى بعضُ مامات منا أو مامات لنا ؛ فان استحال رجوعُنا في هذا العمر عَوْداً على الماضي فهى رجوعُ الماضى الينا ؛ ومن ثَمَّ كان فى لغتها شيء ظاهر من رَوْعة الخَلْق وكانت له

مَعَانٍ كأنها راجعة من سَفَرٍ بعيد الى شوق طال به الصبر.

كتبت كتابةً قال الغافلون إني اتكلّف لها خيالاً ورواية ، وقال العاشقون إنها كلامُ قلوبهم ، وقال الذين يفهمون الكلام إنه هو في كلامه . ولقد كنت من نفسى يومئذ كمن لو ضربه الحب بقشة لجرحه جرحاً يَدْمَى (١) وكنت أكتب عن ساحرة تَبَسِّمُ حتى لتظنّ أنها لم تُؤْتَ وجهاً تعبسُ به ثم تكون مع ذلك شرَّ ما هي كائنة من حيث لا تظن أنت بها الا الذى هو خيرٌ وأهدَى . وكنتُ فى ذلك الكتاب شاعراً وحُب الشاعر لا يخلو من الوزن . . . . وكنتُ متفلسفاً وهيهات إن أصبتَ الحبَّ أيها الفيلسوفُ الا فى امرأة معقّدة يؤلفها الله تأليفاً من العُسْر بين فهمك ومعانيها ، فلاجَرَمَ كان الكتابُ في نوع من الحب المتألم لا يكون مثله الا بين اثنين مَسَحَ الله يدَه على وجه أحدهما ثم مَسَحَ يدَه على قلب الآخر ثم تواريا بعدُ

(٢) دمي الجرح يدمى (كرضي يرضى) اذا سال دمه

فما لَبِثَ أَن أشرق الاثَرُ الالهىُّ على الاَثَر ، ووقع القضاء في الحب على القدَر

أَلا إن كل باب يُفْتَح ويُغْلَق بمفتاح واحد هو يُغلقه وهو يفتحه الاباب القلب الانساني فقد جعل الله له مِفتاحين أحدهما يُغلقه ثم لايغلقه سواه وهو مفتاح اللذات ، والاخر يفتحه ثم لايفتحه غيره وهو الأَلم

« * »

كنت أستوحي « الرسائل » من تلك النفس التي طارت بي طَيْرَتها البطئَ ووُقوعها فإني لَأَسْتَعِرُ بها فكرا (١) وأَشْتَعِل منها خيالا ، وكنت أرى الفصول تَخلُص في يدى حين أَكتبها كما تخلص سبائك الذهب بعناصرها لا بالصناعة ، وكان هذا القلم كالحديد اذا أُحْمِيَ عليه ، ليست يدٌ لمسته من أيدى المعاني الا وضع فيها سِمَةَ النار ، ثم جاء الكتاب وما أكاد أصدّق أن الزمن مرَّ به

(١) يستعر أي يلتهب كأنه كله شعلة فكر

وتم قبل أن يُتِمَّ القمر دَوْرَةَ شهر واحد [١] ، فنبهني ذلك الى أن أستوفيَ الكلامَ في الحب استمداداً من أرواح أخرى فوضعتُ هذا « السحاب الأحمر » [٢]

وقد استوحيتهُ من أرواح فيها الحبيبُ والبغيضُ والصديق والمظلومُ والظالِمُ لنفسه ومَن عقلُه قلبُه ومن حبّهُ منفعته وفيها أضعفُ ماعرفتُ من العقول وأقواها ، فمن هذه السماء تَوَكَّفْتُ هذا السحاب [٣] ؛ وإني لأَشهدُ أني في بعض فصوله كنتُ أُحامي عن الحب أن يُنْتَقَصَ [٤] فأُدير الكلامَ على ذلك فيلتوي ثم أراه لا ينقاد ولا يُتابِعُ الا على خِلاف ما أريد ، فإذا أخذتُ في المذهب الذي يَعِنّ لي اتفاقا وَعَرَضاً [٥] تحدَّرَ الكلام تحدُّرَ الدمع من حيث لا يَملك أحد أن يُفيضَه أو يَكُفَّه لانه عند أسبابه الباطنة .

(١) كتبت رسائل الأحزان في نيف وعشرين يوما وكتب حديث القمر في أربعة وكتب هذا السحاب في شهرين وهي الكتب الثلاثة التي جعلناها للجمال والحب وكلها مستوحاة (٢) تعرف سبب هذه القسمية في الفصل الاول (٣) التوكف الاستمطار (٤) اي يعاب ويثلب (٥) من يعن اذا عرض

وفي فصل « الشيخ على » خاصةً كانت روح هذا الرجل الطبيعي كأنها هي التي تكتب وكان مَرِيداً على طبعه وخُلُقه [1] فما ملكتُ معه محاماةً ولا دَفعاً. وفى فصل « الشيخ محمد عبده » كنت أشعر كأني مُرتَقٍ في صَعْدَاءَ مَطْلَبُها طويل بعيدٌ [2] فلا أخطو خطوةً الا مُدافِعاً جاذبية الارض وشاعراً بأني أحمل نفسي حَمْلا ؛ وكنتُ كالذى يطأ على أضراس الجبل الصخريّ وأسنانه مُتَّئِداً حَذِرا أن يَزِلّ فيسقط سقوط اللقمة الممضوغة ... ولا ينفعه في الصخر وشُموخه وتعاليه أنه كان فى عريض السّهل عدّاءً لا يُلحَق

« * »

من الحب رحمةٌ مُهْداةٌ فاذا كنتَ مع الله كانت كل أفكارك صوراً روحانية ، فأنت كالملَك هو في الأرض

(١) المريد هو من عتا وطغا ولا يقال الا في الاخلاق والطباع اما في غيرها فمارد (٢) الصعداء الطريق العالية يصعد فيها أو الغاية البعيدة يصعد اليها

ماهو فى السماء ؛ ومن الحب نقْمَةٌ مُسلَّطةٌ فاذا كنت مع الشيطان كانت كل أفكارك صوراً حيوانية فانت كهذا المُتَجَهِّم الطيَّاش (١) الذى لو نظر في كل مرائي الدنيا ما رأى في جميعها غير وجه القرد لانه القرد . . . . .

والناس فى هذا الحب أصناف : فواحد يجاهد زَلاّتٍ قد وقعت وهو المحب الآثِم ، وآخر يجاهد شهوَاتٍ تَهُمّ أن تقع وهو المحب الممتحَن ، وثالث أمِنَ هذه وهذه وانما يجاهد خطَراتِ الفكر وهو المحب ليُحبَّ فقط ، ورابع كالقرابة والصديق عجز الناس أن يجدوا فى لغاتهم لفظا يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الاشياء اليها فى المعنى وهو الحب . وعلى الثالث وحده بنيتُ « رسائل الأحزان » وعلى بعض الرأي فى الباقيات كَسَرْتُ هذا الكتاب

« * »

مَنْ للمحبِّ ومن يُعينُهْ والحبُّ أَهنأه حَزِينُهْ
أنا ما عرفتُ سوى قسا وته فقولوا كيف لِينُهْ

(١) القبيح الوجه الخفيف العقل

إن يُقضَ دَينُ ذوي الهوى فأنا الذي بَقِيَت ديونُه
قلبي هو الذهبُ الكريمُ فلا يُفارِقُه رنينُه
قلبي هو الألماسُ يُعرَفُ من أشعَّتِهِ ثَمينُه
قلبي يُحِبُّ وإنما أخلاقُه فيه ودينُه

« * »

يامن يُحِبُّ حبيبَهُ وبظنِّه أمسى يُهينُهْ
وتَعِفُّ منه ظواهرٌ لكنه نجِسٌ يقينُه
كالقبرِ غطَّته الزهورُ وتحته عفِنٌ دفينُه
ماذا يكونُ هواكَ لو كلُّ الذى تهوَى يكونُه
دَعْ في ظنونك مَوْضِعاً أن الحبيب له ظنونُه
وخذِ الجميلَ لكي تزينَ الحسنَ فيه بما يزينُه
إن تنقَلِبْ لِصٌّ العفَا فِ لمن تحبُّ فمَنْ أمينُه ؟
مالذةُ القلبِ المدلَّهِ لايطولُ به حنينُه
مالذة العقل المحبِّ ولم يُجَنِّنْه جنونُه
الحبُّ سجْدَةُ عابدٍ ماأرضُهُ الا جبينُه

الحبُّ أُفقٌ طاهرٌ ما إن يُدَنِّسُهُ خَؤُونه
أُفُقُ الملائكِ نفسُهُ في البَدْءِ كانَ له لَعِينُه (١)

« * »

وَيلي على مُتَدَلِّلٍ ما تنقضي عني فُنُونه
كيف السُّلُوُّ وفى فؤا دى لا تُفارقُني عيونه

مصطفى صادق الرافعي

(١) هو ابليس لعين السماء وطريد الملائكة

كلمة

كانت دُرَّتان متجاورتين فى حلْية على صدر حسناء ؛ وكلتاهما يتيمة إلا من أختها (١) ، تَمُجُّ ذلك الشعاعَ النادر الذى جاءه الحسن من كونه ضـوءاً لم يُولَد من شمس ولا من قمر ولـكن من ظُلمات البحر . فتناجتَا يوماً وكانت الجميلة قد استوفت كلَّ زينتها وحملت الدرَّتين على صدرها كأنهما عيْنَا قلبها الثمين ؛ فقالت احداهما للأُخرى وهي تشير الى هذه الفتَّانة : انظري انظري ما أَحْسَنَ لؤلؤتَنا . . .

صارت اللؤلؤة فى هذا المنطق الشعريّ هي امرأة الأعماق المظلمة وعادت المرأة الحسناء لؤلؤةَ الأعماق السمٰوية المضيئة ؛ فلا شيء يريد أن يكون كما هو فى نفسه إذ لا يزال موضعُ الفَصْلِ من حكمة الله خفيًّا لا يُرى بل يُتَوَهَّم ، ولا يُستَيقَن بل يُظَن ، وكان خفاء هذه الحكمة فى سماواتها ايجادا للخيال فى الانسان حتى لا يظلّ أبداً فى حيوانيته ؛

(١) أي لا يشبهها في الدر الا أختها

ولكن هذا الخيال نفسه كثيرا ما أضاف الى الانسان حيوانيةً أخرى

ولو كُشِفَ لك عن الحقيقة لرأيتَ أقبحَ مافى كل شيء أن لا يبرحَ أبدا محبوسا في حقيقة لا يُجاوِزها ؛ ومن ثَمَّ خفَّف الله عن الانسان فأودع فيه قوة التخيل يستريح اليها من الحقائق ، فاذا ضجر أهل الخيال من الخيال لم يُصلحهم الا الحب فهو وحده ناموس التطور للقوة المتخيلة ولن تجد فى الاشياء العجيبة أعجب منه حتى كأنه أُمٌّ تَلِد . فالمرأة هي تلد الانسان ولكن حبها يلد النابغة

« * »

وليس يقع التعجب من الأمر لأنه عجيب فى نفسه بل لانه متصل من الانسان برُوعِه (١) أو بعقله أو بهواه أو بمطامعه ؛ فان دَهِش الرُّوع أو تحيَّر العقل أو اشتهى الهوى أو تمكن المَطْمَع من النفس ؛ فهذه هى الألوان الأربعة التى تصور منها الطبيعة الانسانية كلَّ معاني التعجب.

(١) الروع الخاطر والقلب

والذى هو أعجبُ من جميعها أن الطبيعة لاتحتاج الى جميعها فى تصوير شيء الا واحدا هو تصوير الحب الصحيح فى قلب انسان

فهذا الحب ليس حقيقة واحـدة عجيبة بل هو أربع حقائق داخَل بعضُها بعضا فلا يتميّز لونٌ منها من لون منها. وما حقيقة الحب الصحيح الا امتزاج نفسين بكل مافيهما من الحقائق حتى قال بعضهم : لايصح الحب بين اثنين الا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر يا أَنا (١) ؛ ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنفَ مافى الخُصومة إذ هو تَقاتُلُ روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة ؛ وأكبر خَصيمَتين فى عالم النفس مُتحابّان تباغَضا

وللحب العجيب جنسٌ من النساء عجيب خُلِقن جواسيسَ على القلوب يدخلن فيها ويخرجن منها ، وقلّما تجسّست الواحدة منهن الا لتفضح للدنيا أسرارَ روح

(١) يريد اتحادهما في الميل والهوى والحياة والخضوع كأنهما تبادلا نفسيهما فنفس كل منهما انتقلت في الآخر

عظيمة ؛ وهذا الجنس تُهيِّئه الطبيعة تهيئة المادة السحرية وتولد المرأة منه مرتين ، فاذا هي انحدرت الى الدنيا طفلةً جعلت تأخذ فى دمها الجذَّاب من شعاع الشمس يتَوهَّج ومن نور القمر يتندَّى (١) ، وذهبت تنمو فى ظاهرها نمواً وفى باطنها نموا غيره حتى اذا بلغتْ مَبْلَغَها وانبعثت ملءَ شبابها آنَ لها أن تولَدَ الثانيةَ فولدت فى قلب رجل

والعجيب انها فى الولادة الأولى يكون أولُ وجودها هو أولَ وجودها ؛ أما فى الثانيـة فذلك أول فَنائها لان المرأة متى حلّت من قلب الرجل محلاًّ جعل يُفنيها معنىً في معنىً حتى تفرغ فلا يبقى منها الا ذكرى زمن مضى ...

وكل امرأة من هذا الجنس هي مُعْجِزةٌ عقلية مادامت مخبوءةً فى الشعاع السماوي من جمالها وما دام هذا الشعاعُ يفعل فعلَه الذى عرفه الناس أوضحَ ماعرفوه فى أديانهم وعقائدهم وفيما أنزلوه منزلةَ الأديان والعقائد

وآيةُ مِصْداقِ هـذا الإعجاز (٢) فى المرأة الساحرة

(١) يترطب والتوهج توقد النار ونحوها
(٢) أي برهانه تقول مصداق الامر كذا وآية مصداقه كذا

المحبوبة ذلك النوعَ من الحب أَنه بَيْنَا يكون محبها رَزِينَ الطبع وازنَ الرأي (١) كالجبل الراسخ الوَطْأَة ، إذا هو من سخافة رأيه في بعض أهواء الحب ونَزَعَاته كأنه جبلٌ يطير بألف جَناح وقد ملأ الخوافقَ بين السماء والأرض أوهاماً سحرية

وهنا مُعْضِلة الحب التي لا حيلة في فهمها ولا في تقريبها الى الفهم ، وهي تُثبت أن العاشق يُعطى في ناحية خياله قِبَلَ الناس جميعا ولكنه يُنْتَقَصُ من ناحية عقله مع حبيبته وحدها فهما سِحْران تَظَاهرا (٢)

ولا يُشْبِه تلك المعجزةَ الا أن ترى إنسانا يقوم على ساحل البحر المِلْح فيلقى فيه رِطْلاً سُكَّرًا ثم يتذوّق البحر فاذا هو في مذاقه وفي رأيه وفي حكمه شرابٌ سائِغ كأنما ألقى الرجل فيه وزنَ كرة الأرض من هذا الطعم اللذيذ الحلو ... ومع ذلك فهو عاقل فيما عدا ذلك

(١) عاقل وقور راجح الفكر (٢) اي تعاونا

الفصل الأول

القمر الطالع

في يدى الآن هذا القلمُ الذى اكتب به وهو سنٌّ قائمةٌ في نِصَاب (١) من الزجاج أحمرَ صافٍ يَشِفُّ عن دَاخِلِه ، فاذا طاف به النورُ أشعَّ فيه (٢) وانصبغ بلونه فرمى على إصبَعى ظلاًّ مجروحاً (٣) يريك الجلد كأنما جُرحه من فوقه لا من تحته

فاذا رَاوحتهُ يدى (٤) وقلّبته أناملى رأيتُ له بَرِيقاً يستطير فيه كأنه شُعْلَة من اللهب حبستها مُعجزة في عُود من الثلج

فاذا استعرضتُهُ بين العين وبين الضوء الساطع رأيت منه ياقوتةً حمراءَ قد افترَّ فيها نبعٌ كالفَمِ الحلو يتنفّس على قلبي الحزين بابتسامات تأتى الي وفيها ألوانُ شفاهها الوردية

فانى لَجَالسٌ ذات مرة في جَوف الليل أكتب على

(١) السن الريشة والنصاب اليد التي تمسكها (٢) أظهر شعاعه فيه
(٣) استعير له الجرح لانه أحمر يترقرق كالدم (٤) داورته وقلبته

ضوء الكهرباء إذ طارت فيه نظرة من نظراتى وكان بإزاء الشَّعِيلة (١) فرأيت فى خِلالَه من انعكاس الضوء شُمَيْسَةً صغيرة لم أر قطُّ أحسنَ منها حسناً كأنها سَبِيكة تحترق وتتناثر ضباباً من بخار الذهب ؛ فمددتُ النظر فاذا أنا بتلك الشُّميسة كأنها احدى عذارى الجنة انغمستْ فى غدير صافٍ نحوّله جمالها فانقلب من معنى الماء الى معانى الجمال المستَحِي فاحمرّ كأنه لون خد مُورّد

وراعنى ما ابصرتُ فاستأنيتُ لحظةً ثم رفعت طرفى الى مَدار هذا الكوكب فجعل يرمى بمثل شقَائق البرق (٢) تلمع واحدة لواحدة، ثم انقلب يتضرَّم كالتنُّور المستَعِر، ثم عاد لجّة من «السحاب الأحمر» يموج بعضُها فى بعض كالحب المتوهّج يملأ فراغَ قلب كبير ؛ فاختَلَجَ الذى هو فى صدرى وحضَرَتْنى (٣) حاضرةٌ من الذكرى لم تكد تَعرض للفكر حتى انفلق السحاب عن وجه فاتن كالقمر

(١) هي فتيلة السراج المشعلة سمينا بها خيوط النور المنبثقة في المصباح الكهربائي وما تجري فيه ترجمة لكلمة Duill (٢) قطع البرق جمع شقيقة
(٣) خطرت ببالي والذي هو فى الصدر القلب

الطالع وكان متمثّلا في نفسي مُذْ أبصرت تلك الشميسة فكأنما رأى من السحاب مرآة فانطبع فيها ؛ وماتَلَبّثَ إلا يسيراً ثم اختفى .

وغصتُ في هذه النفس أفكر فيما رأيت وأنا أُمْسِكُ على قلبي أن يطير فاذا « السحاب الأحمر » يُمطر عليَّ مطرةً من الخواطر والكلمات يتلاحق منها طرَف بعدَ طرَف وتُقبل طائفة وراء طائفة كأن متكلما يتحدث بها في نفسي أو كأنه وحيٌ يُوحى من مَلَك الجمال ، فأسرعتُ أدوّنها وأُحصيها تحت عيني تلك الصورة الجميلة المُشْرِقة عليَّ حتى امتلأ البياضُ سوادا واستفاضت روحُ الحبر الأسود بالهمّ على صُدوع القلب وعلى شِعابِه (١)

وجاءت بعد ذلك ليالٍ كان فيها السحابِ يَعرِضُ لي صوَرا أعرفها فاذا مثّلَها فاستوحيتُها الفِكرةَ سحّ عليَّ الخواطرَ من روحها فأقبلت كالمطر يُفرَغُ إفراغا دَفْعَةً من غير تَلبُّث (٢)

(١) طرق القلب وشقوقه (٢) المطر متى سح تتابع حتى تنقشع السحابة أو تتسابر

« * »

رأيت وجه فتاة عرفتها قديماً في رَبْوة من (لُبنان) ينتهي الوصفُ الى جمالها ثم يقف [1]؛ كنت أرى الشمس كأنما تجرى فى شَعرها ذهباً وتتوقد في خدها ياقوتاً وتسطعُ فى ثَغرها لؤلؤة؛ وكنت أرى الورد الذي يزرعه الناس في رياضهم فاذا تأملتُ شفتيها رأيت ورقتين من الورد الذي يزرعه الله فى جنته؛ وكانت لها حيناً خفةُ العُصفور وحيناً كبرياء الطاووس ودائما وَداعةُ الحمامة المستأنسة؛ وكانت روحُها عَطِرَةً تَنفَحُ نَفْحَ المسك اذا تَشَامَّت الارواحُ الغَزِلَةُ بالحاسة الشعرية التى فيها

وكنت اذا رأيتها بجُملة النظر من بعيد صوَّر لها قلبي من الحسن والهوى ما يموت فيه مَوْتَةً ثم يحيا ، فاذا جالستُها وأثبتُ النظرَ فيها رأيتها في التفصيل شيئاً بعد شيء بعد شيء كما أنظر نجماً بعد نجم بعد نجم؛ كلها شعاع

(١) لا نطيل في وصفها هنا فهي التي وصفناها فى « حديث القمر »

وكلها نور وكلها حسن

وما نظرت مرة الى النساء حولها إلا وجدتُ من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعفُ من جهتها عالياً ويتضاعف منهن نازلاً نازلاً كأنه ليس فى الامر إلا أنها أُخِذَتْ من السماء ووُضعت بينهن

هي كالفتنة المحتومة تنبعث الى آخرها فليس منها شيء الا هو يُحَسِّنُ شيئا ويُشَوِّق الى شيء وبعضها يُزيِّن بعضَها

« * »

لقد تَواخَى الزمنُ بي وبها فلو عددت لأَحصيتُ مائة وخمسين قمراً (١) منذ فارقتُها ، وما أحسب الأرض إلا انصدعت بيننا عن أُقيانوس عظيم من الزمن تملأه الأيام والليالي فلا يُخَاضُ ولا يُعْبَر ولا ينظر فيه أهلُ ساحل أهلَ ساحل غيره

وعلى أن هذا الزمن قد محا فى قلبي من بعدها وأثبت

(١) كناية عن الشهر ولا تقول خمسين ومائة وكلاهما صحيح

فلا تزال تنشقُ لها زَفْرَةٌ من صدري كلما عرضت ذكراها كأن القلب يسألني بلغته أين هي ؟ والقلبُ الكريم لا ينسى شيئا أحبه ولا شيئا ألِفَه إذ الحياة فيه انما هي الشعور ، والشعور يتصل بالمعدوم اتصالَه بالموجود على قياس واحد . فكأن القلب يحمل فيما يحمل من المعجزات بعضَ السر الأزلي الذى يحيط بالأبعاد كلها إحاطةً واحدة لأنها كلها كائنة فيه ؛ فليس بينك وبين أبعد ما مرَّ من حياتك الا خطوةٌ من الفكر هي للماضي أقصرُ من التفاتة العين للحاضر

« * »

ليس بجمال الا ذلك الروحُ الذى يرفع النفس الى أُفق الحقيقة الجميلة ثم ينفخ فيها مثلَ القوة التي يطير بها الطير ويدعها بعد ذلك تتراى بين أفق الى أُفق ، فإما انتهى المحبُ الى حيث يصير هو فى نفسه حقيقةً من الحقائق ، وإمَّا انكفأَ من أعاليه وبه ما بالطيارة الهاوية رفعت راكبها

الى حيث ترمي به ميتا أو كالمغشيّ عليه من مسّ الموت ؛ والذين ينكرون أن الجمال يقتل أحيانا أو يجعل الحياة كالقتل ثم يدّعون مع ذلك هوًى وحبًّا — انما هم أولئك الذين يعشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التى يحبون بها الذهب والفضة وورق البنك .....

وليس بحبّ الا ماعرفتَه ارتقاءً نفسيًّا تعلو فيه الروح بين سماوَين من البشرية فتلوح منهما كالمصباح بين مرآتين ، يكون واحدا وترى منه الدين ثلاثة مصابيح ، فكأن الحب هو تعدُّدُ الروح في نفسها وفي محبوبها

« * »

ولا سُمُوَّ للنفس الا بنوع من الحب مما يشتَعِلُ الى مايتنسّم ؛ من حب نفسك في حبيب تهواه الى حب دمك في قريب تعِزُّه ، الى حب الانسانية في صديق تَبَرُّه ، الى حب الفضيلة في انسان رأيتَه إنسانًا فاجللته واكبرتَه

فاذا أنت أصبتَ فى الخليقة من أغفلَ الله قلبَه (١)

(١) أهمل قلبه وتركه لا يثبت فيه شيء منها

عن تلك الأربعة فلا حبٌّ ولا صِلة ولا يألَف ولا يُؤلَف ؛ فذلك هو الذي لا نفس له من نفوس الناس كأَنه سبُع من السباع الضارية ، أو هو الذي كله نفس كأَنه نبيٌّ من الأَنبياء . تجد الأَول فيمن اعتزله العالم من شرار المجرمين وأخلاطِ الشياطين الإِنْسِيّة الذين لا يَسعُهم الناس بعد أن انفصلوا من انسانيتهم وانحطوا انحطاطاً فى أشد العُنف . وتجد الثاني فيمن اعتزل هو العالمَ من خيار الاوّابين والشهداء الذين لا يَسَعُون الناسَ بعد ان اتصلوا بانسانيتهم الكاملة فارتفعوا عن الخلق ارتفاعاً في أرقّ الرحمة

« * »

الحب بعض الايمان ؛ وكما أن الطريق الى الجنة من الايمان بكل قُوَى النفس فان الطريق الى الحب من قوةٍ لا تنقص عن الايمان الا قليلا ؛ والخُطوة التي تقطعُ مسافة قصيرة الى القلب تقطع مسافة طويلة الى السماء

وكما ينشأ الكفر أحيانا من عمل العقل الانساني اذا هو تحكّم في الدين ، يأتي البُغض من هذا العقل بعينه اذا هو تحكّم فى الحب

وتُرى ما هذا الشبه بين المرأة وبين السماء ؟ أكانت المرأة فى أصل الخلقة مادة سماء بدأت تتخلّق فى الغيب فحبسها الله فى ضلع الرجل عِقاباً لها ، ثم عاقبها الثانيةَ فأخرجها للرجل تنظر اليه كما ينظر السجين الى سجنه . . . ويكون الله سبحانه قد عاقبها مرتين لتتعلم هي بطبعها كيف تتجنى على الرجل وتعاقبه مراراً لا تُعَدّ ؟

أيمكن ان يكون هذا الجمال الفتان فى المرأة الجميلة خُلاصةَ سماء من السموات خُلقت عينين وخدين وشفتين ، تضحك أحيانا بالنور وتلتهب أحيانا بالبرق وتنفجر أحياناً بالرعد ؟

لقد عرفنا أن فى السماء جنةً وناراً ، وأُقسم لو صُغِّرت الجنة وجُعلت أرضيةً تُلائم حياة رجل من الناس ثم عُجِّلت له فى هذه الحياة الدنيا لما كانت بمتاعها ولذاتها وفنون الجمال

فيها الا المرأةَ التي يحبها. أما الجحيم فلا أراني فى حاجة الى برهان على أنها صغّرت وتجزأت واندفقت على الأرض شُعَلاً فى أسماء من أسماء النساء . . . .

لذلك أراني لا أستطيع أن أفهم المرأة الجميلة بل لا أدري كيف أفهمها ، فمن حيثُما نظرتُ اليها لاأراها تبتديء الا من فوق العقل فأنظر اليها ساكتا على أنها هي لا تنظر فىّ الا متكلمة

« * »

ياملوّنَ السماء والوجوه الجميلة ؛ يامصوِّرَ الرّوعة والحب ؛ يا مُبدعَ هذه المعانى الظاهرة إبداعاً جعلها لدقّتها كأنها لم تظهر

يا موجد القلب كما هو لتملأه السماء إيماناً والجمال حباً والمعانى فكراً منهما معاً

و ياخالق الانسانية العالية في الانسان الكامل من ايمانه وحبه وفكره

نعرف هذه السماء بما وسِعَتْ للايمان ، وهذه الطبيعة

بما رُحبتْ للفكر ؛ فهل المرأة وحدها هي التى للحب ؟

تباركتَ اذ جعلت ما وراء الطبيعة فوق الفكر مهما سما ، وجعلتَ الطبيعةَ حول الفكر مهما اتّسع ، وأنْزلت المرأة بين المنْزلتين مهما كانت

ان من النساء ما يُفْهَم ثم يعلو فى معانيه الجميلة الى ان يمتنع ، ومن النساء مايُفْهَم ثم يَسفُل فى معانيه الخسيسة الى ان يَبتْذِل

ان من المرأة ما يُحَبُّ الى أَنْ يلتحق بالايمان ، ومن المرأة ما يُكْرَه الى أن يلتحق بالكفر

« * »

من المرأة حُلوٌ لذيذ يُؤكل منه بلا شِبَع ؛ ومن المرأة مُرٌّ كَرِيه يُشبَع منه بلا أكل . . . .



الفصل الثاني

النجمة الهاوية

طائفة من الخواطر في طائفة من النساء

وتَرَقْرَقَ السحاب فاذا هو كنَضْح الدم[١] واذاهو يَفور فَوْرُه [٢] فبَانَ كأَنما يتدفَّق من طَعْنة أرى دَمها ولا أرى موضعها لأَن هذا الشلاَّل الأَحمر يتفجر منها

ورأيتها هي طالعةً كالشمس حين تغرب محمَّرة يَتغالبُ طرَفا الليل والنهار عليها ففيها أواخرُ النور وأوائل الظُّلمة، وسوادها يمشى فى بياضها[٣] ....

قلت يوماً فى صفة احدى القصائد البديعة : إنها فَنّ من الشعر، وفى احدى الصور المُحكمة : إنها فن من التصوير، وفى تلك الجميلة : إنها فن من المرأة . أما الآن فقد عرفنا أن اصفرار الشمس إيذانٌ بسواد نصف أرضها

ويقول العرب : امرأةٌ مَجْلوّة ، ويفسّرون ذلك بأنك

(١) كخروج الدم وسيلانه (٢) غضبه (٣) انظر كتاب « رسائل الأحزان »

اذا رامَقْتَ فيها الطرفَ (١) جال ، يَعنُون أَنها من جمالها ذاتُ شعاع فيجول الطرف فيها لأَجل شعاعها وبَرِيقها . أفلا يجوز لنا أن نزيد في هذه اللغة : وامرأةٌ صَدِئة ونفسرها بانها هي التي اذا اتصلتَ بها تركتْ مادة الصدأ على روحك اللامع لانها كهذا الصدأ طِينتْ على طِينتَها (٢) ؟

« * »

لست أريد أن أصنع في هذا الفصل كتابةً حتى لا أُدير الكلامَ على شيء فقد مُسِختْ تلك النفس في نفسي نخلَصتْ لي منها هذه الكلمة الجميلة : تتمُّ آمالنا حين لا نؤمِّل . ولكني مرسلٌ مطرةَ سحابي تَهْطِلُ ما هطَلَتْ . فالمرأة الأولى أضاعت على الرجل جنتَه ومن نَسْلها نساءٌ يُضيّعن على الرجل الجنة وخيالها . . . ولو استطاعت الأَرض ان تَفرَّ من تحت قدميْ مخلوق براءةً منه لكان أول من تنخَزِل تحت رجليه (٣) واحدة من هذا النوع

(١) أرسلت فيها النظر (٢) أي جبلت على جبلتها وطبعها والصدأ أشبه بالطينة في معدنه (٣) أي تنقطع وتنخسف

مِلْحُ الله لا يحلو أبداً فماذا تصنعُ في نفس لو سالت لكانت بُحَيرَة

« * »

سرورُك من الصديق الطيّب لا يكلفك الا أن تستمتع به وأنتَ لا تخسر فيه اذا زال الا أنه زال ، فاذا لم يكن الطيّب في نفسه طيّبا كذلك في أثره فهو الخبيث

« * »

بعضُ النساء تَنْقصُ بها الحزنَ ، وبعضهن تغيّر بها الحزن ، وبعضهن .... تتم بها حزنك

« * »

لا يتّقِدُ الشجر الأَخضر الا من أشد النار سَعيراً وتتقد المرأة الجميلة حتى من أشعة وهمها

« * »

في قلب الرجل الفُ باب يدخلُ منها كل يوم ألفُ شيء ، ولكن حين تدخل المرأة من أحدها لا ترضى إلا أَن تغلقها كلّها ....

« * »

النساء مَنْجَمُ السعادة ، فرجلٌ واحد لا يكاد يمدُّ يدَه حتى يضعها على الجوهرة المُشْرِقَةِ . ومائة رجُل يُغَرْبلون حصى المرأة وترابَها ليجدوا فيها شَذْرَةً تلمع

« * »

قال لي زوجٌ عن امرأته : أنا وهي ينتج منهما أنا بِلا أنا . . . .

« * »

لم يخلق الله أحداً مكروهاً قط ، وإنما نبغض من الناس الصُّوَرَ المكروهة التى يحْدِثونها ؛ فعملك شخصُك الحقيقى

« * »

كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء ، ثم تثور يوماً فلا تدل ثورتُها على شيء الا كما يدل المُستَنْقَعُ على أن الوحْلَ فى قاعه ؛ فأَغضِبِ المرأةَ تَعرفْها

« * »

الحبيبُ من تَلْتَهمه بكل حواسك ، فاذا رأيتَه فقد رأيتَه وسمعتَه و ذُقْته ولمستَه وشممتَه ، والبغيض من تَقيئه من كل حواسك ....

« * »

فى المرأة حقيقةٌ ولكنها لن تعرفَها الا بفكر رجل ، فالكاملة من لا تسىء أحداً والا أساءت الى حقيقتها

« * »

كلُّ ما يخطُرُ ببالك فَقَدِّرْ معه ضِدَّه اذا كنت تفكر فى الحب والبغض

« * »

يجب على المدارس حين تعلِّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلِّمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها

« * »

الخبيثاتُ للخبيثين ، قيل لأرضٍ حَطِيبَةٍ[1] : من تشتهين أن يكون زوجَك لو كنتِ امرأة ؟ قالت .... الفأس

(١) أي كثيرة الحطب لخبث تربتها

« * »

تجاورت شجرةٌ من الحَسَك [١] وشجرة من الورد، فزَهَتْ الوردة زَهْواً عاطراً بطبيعة العِطْر الذى فى مادتها. فقالت لها الحَسَكَة وَيحكِ ما هذا الزَّهْوُ الذي أفسدتِ به محلكِ من نفسي ؟ قالت الوردة فى كلامٍ هو عِطْرٌ آخر : لا تتعبي نفسكِ فى تحقيرى فلست أفهم لغةَ الشوك الا اذا كان يُنبت الورد

« * »

قد يتغيّر الرجل فى نظر امرأته حتى تقول له : يا أنتَ الأولَ ، يا أنتَ الثاني [٢] . ولكنى عرفت رجلا قال لامرأته يا أنتِ الخامسةَ والخمسين

« * »

قيل لحيَّة سامَّة : أكان يسركِ لو خُلقتِ امرأة ؟ قالت : فأنا امرأة غير أن سمّي في الناب وسمَّها فى لسانها

« * »

(١) الحسك هو الشوك وسميت به شجرته مجازا
(٢) يريد تغير الطباع وفتور النفس وما أشبه ذلك

ما الأَمَ الشجرةَ التي لو نطقت لَشَتَمَتْ من يسقيها

« * »

لا يفكِّر الرجل فيما لم يَحدُثْ على اعتبار أنه حادث الا في شيئين : المصيبةُ التي يكرهها والمرأة التي يحبها

« * »

قال رجل حكيم : اذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فاطلب له من عُذرٍ واحد الى سبعين عذراً ، فان لم تجد فقل ولعل له عذراً لا أعرفه . وقالت امرأة حكيمة . . . اذا بلغكِ عن رجل ما تكرهين فاطلبي له من ذنب واحد الى سبعين ذنباً ثم قولي ولعل له ذنوباً لا أعرفها . . . زوِّجوا الحكمتين أيها الناس . . .

« * »

يُخَيَّل إليَّ أن عقل بعض النساء مثل وجوههن المزوَّرة . تحته ما تحته وليس عليه إلا « غُبارٌ » من العقل

« * »

من المستحيل أن نُنكِر النار وإن كان شررُها

ينطفىء كحبَبِ الكأس ، ومن المستحيل أن تَلْذَعَ الخمر وإن كان حَبَبُها يَمُوجُ موجَ الشرر . ولكن من الممكن أن تجد في امرأة واحدة لذعَ النار وإسكارَ الخمر معاً وهي شيطانة النساء يجتمع مُمكنها من مستحيلين

« * »

شرُّ النساء عندك وعندى هي التي تجملك تتنبَّه الى ما في النساء من الشر

« * »

قال بعضهم لزاهد عظيم : إني رأيتك الليلةَ تمشى في الجنة . فقال له الزاهد ويحك أَمَا وجد الشيطان أحداً يَسْخَرَ منه غيري وغيرك. وقال رجل لامرأة : إني رأيتكِ الليلةفي الجنة . فقالت له ويحك تقولها من غير أن تشكر فضلي عليك مع أني أدخلتك الجنة . . .

« * »

أشأمُ النساء على نفسها من لا تُحَبُّ ولا تُبْغَض ، وأشأمهن على الناس من اذا عدَّتْ مُبغضيها لا تعدُّ الا

الذين أحبوها

« ✻ »

يا هـذه لا أدري ما تقولين ؛ ولـكنَّ الحقيقة التى أعرفها أَن نفس المرأة اذا اتَّسَخَتْ كان كلامُها في حاجة الى أن يُغْسَل بالماء والصابون وهَيْهات . . .

« ✻ »

يا مَنْ على الحبِّ يَنْسَانَا ونَذكرُهُ
لَسَوْفَ تَذْكُرنا يوماً ونَنْساكا
إنَّ الظلامَ الذي يَجلوك يا قمرٌ
له صباحٌ متى تُدْرِكْهُ أخفاكا



الفصل الثالث

السجين

وتغَيَّمَ سحابي هذه المرة وأطبقَتْ في حواشيه سوداء على سوداء (١) كأنه بجمع همّ قلب بات الألمُ من عناصر حياته . رأيتُ في سَوائِهِ (٢) رجلا أُلبِسَ الذِّلّةَ وسِيمَ الخسفَ (٣) قد انتصبَ كالجِذْع المشتعل وله فروعٌ من الدخان وهو هذا السجين الذي أقُصُّ خبره

ألاَ إنما الانسان من الأقدار كالنبات بين الفأس التي تَحرُثُ له والمِنجَلِ الذي يحصد فيه ؛ وما هذه الدنيا إلا هذانِ فلا يحسبنّ العود الطالعُ أنه شيءٌ غيرُ العود المقطوع

كنت يوماً في محكمة كذا ، فجاءَ الجندُ بسجين قُرَويّ كالمارد يزعمون أنه سَبُعٌ من سِباع القُرى وشيطان من شياطين الليل (٤) وقد غلّوا يديه بسلسلةٍ من الحديد

(١) أي غيمة سوداء على غيمة أخرى (٢) أي في وسطه
(٣) سامه الخسف وأسامه أولاه الهوان والذل
(٤) أي لص فاتك وهي كناية

لعل فَقَار ظهره أصلبُ منها

خُلق في هيئة مُستَصعِبَة شديدة المِراس كالجمرة المتقدة ، ولكن الحياة مازالت به من نكد الى أنكدَ منه حتى طمرَته في رَمادها لأن لهُ عثرةً هو عاثرُها يوماً

وخُلق في مِزاجهِ وعَصَبهِ من المادة المشتعلةِ حتى اذا التهب رأت منه الحياة شكلَها القويَّ الجميل في الرجل المشبوب يُرسل فروعَهُ النارية على ماحولهُ ؛ فاذا خمد رأى منهُ الموتُ شكلهُ العنيفَ الجميل في الجمرة العليلة الذابلة حين تمرُّ أنفاس الهواء عليها

رجلٌ طُوالٌ اذا انتصب والناسُ وُقوفٌ حولهُ رأيتهم معه أشبهَ بهم قُعوداً مما يَفرَعُهم من طولهِ وامتداد قامته ؛ مجدولُ الذراعين مَشبوحُ العظام [1] قد تَباعَدَ مَنكِباهُ وترامى بينهما صدرٌ مُصفَّح كل ثدي من ثدييهِ يجمع قوةَ أسد

وهو في توثيق جسمهِ وتفرُّع بعضهِ من بعض كأنهُ

(١) الشبح عرض العظام وهو من علامة القوة والصلابة

شجرةُ رجال كل فرع منها بَطَلٌ منكَر ، وهو في إحكام تركيبهِ واندماج بعضهِ في بعض كأنه تمثالٌ أُفرغ من حديد فتوزَّعت فيهِ الـكُتَلُ هنا وهنا ، وكل ما فيه من الإِجمال والتفصيل أنه جسم آدميّ يمثل للأَعين ناموس « بقاء الأَنسب »

وجاؤوا به والناسُ مُتقصِّفون عليه من ازدحامهم ينثني بعضهم على بعض لينظروا الى الرجل الكامل بل الذى نَقَص حين كمُل ، وهو مُطِلّ عليهم . . . كأَنه عبارة مُبهَمة في صحيفة وكأنهم من حولهِ شروحٌ وتفاسيرُ رُقِمَتْ على حاشيتها بخط دقيق . وقف كالشيء الغامض يروعهم بغموضهِ أضعافَ ما يعجبهم برَوْعته وكانوا كالشعاع خيطاً يظهر من خيط وكان كالظلمة نَسيجا من قطعة واحدة؛ وأحسبه لو صاح بهم صيحةَ البأس لسقطت قلوبُهم من علائقها سقوط أوراق الشجر في قاصفٍ من الريح وكأن ما بينهم وبينه في الروعة والقوة كالذي تقيسه بين الف متر انخسفت تحت الارض والف متر انبثقت فوقها فالبعدُ بين

طرفيها مضاعَفُ كل منهما . وما زالت سُنَّة الله أن تتضاعفَ الفروق دائماً بين الاشياء التي لا يمكن أن تتفق حتى لا يمكن أبداً أن تتفق

أما أنا فما يعجبني شيء ماتعجبني القوةُ السليمة في رجل شجاع والضعفُ السليم في امرأة جميلة وكما أنظرا كثرَ الوقت بالنظر الساكن المفكر، أحب أن أنظر أحياناً بمثل البرق المتطاير من عيني أسد مفترس أو الازورار الزائغ في عيني جواد جَمُوح . وخيرُ الناس في رأيي من غسله تاريخُ أهله بضوء السماء وضوء السيوف معاً (١)

((*))

وكان الرجل يظهر كأنما هو لا يُمسكهُ الحديد الذي يَعَضُّ على يديهِ بل ذنبُهُ الذي يعض على قلبهِ ، ولعلهُ قَتَل ضعيفاً مظلوماً فتحول ضعف القتيل وذلته ومسكنتهُ الى أرواح منتقمة من كبريائهِ تدسُّ في ضميره عنصرَ الجبن البغيض اليهِ وتربط الروحَ الميتة الى روحهِ فلا ينزع ظلمتها

(١) يريد بهذا أن يكون من أجداده الابطال والحكماء واهل العلم

عن قلبهِ كلُّ مافي النهار من الضوء ولا يجـد النورَ الا في الإقرار والندم فيسكن اليهما. وتبينته فرأيته ساكناً سكونَ الاستهزاء كأنهُ على ثقة مما خفي عنهُ تشبه ثقته بما وَضَح لهُ ، أو هو لتماسته أخفق اكثر مما فاز ؛ والانسان متى كثر إخفاقهُ صارت الخيبةُ في الأعمال هي الخطة التى يبنى عليها ؛ أولا هـذه ولا تلك ولـكنها الشجاعة تجعل المطمئن الى غاية الحياة لايبالى بكل وسائل هـذه الغاية المحتومة

وقيل إنهُ بعد أَن غَمس يدهُ في الدم طار على وجهه تَلْفِظُه الأرض من جهة الى جهة حتى أسـلمته يدُ النقمة الى يد العدل

« * »

ترى لو سألنا الوحشَ حين يفترس انساناً : ماذا وقع في نفسك منهُ حتى ثُرتَ به وعدوتَ عليهِ ؟ أكان يقول ـ لو أنطقهُ الله — إلاّ أنه أبصر فى هذا المخلوق وحشاً ماكراً خبيثاً إن يكن في دِقة ناب الثعبان فهو في خطَر سمّه ؛ وانه

لو رأى عليهِ سَمْتَ إِنسان وأبصر له نظرةَ انسان وأحس منهُ قلبَ انسان لَلَجأَ من وحشيته الى الانسانية التي فيهِ إذ الإِنسانية هي حَرَمُ الأَمن الالهيّ الذي توضع عندهُ كل الاسلحة حتى أسلحة الوحوش ، وإِذ الانسان هو محرابُها الذي تضرع عندهُ كل القوى حتى قوى الطبيعة

كأنما كَبُرت الانسانيةُ حتى عن أن تكون شيئاً انسانياً فما هي فيمن ترى ممن حَشْوُ جلودهم ناسٌ وحشوُ نفوسهم بهائم .... انما الانسانيـة هناك بعد أن تخرج بنفسك من حدود الشهوات الارضية وترفعَها فوق هذه الطبيعة ، وبعد أن تُعانيَ في شَقّ طبقات النفس الحريصة طَبَقاً عن طَبَق مثلَ الذي يعانيهِ من يحفر في أصلب أحجار الارض الى غَوْر بعيد. فهناك لا تجد الاشياءَ بل معانيَها وأسرارَها ، ولا الحوادثَ بل أسبابها وأقدارَها ، ولا نيرانَ النفس بل أضواءَها وأنوارَها ، فترجع من ثَمَّ وفيك الناموسُ الذي يُنبِتُ الخُضرة من العود المغْبَرّ (١) ، ويُخرج النارَ

(١) الجاف من الشتاء

من الشجر المخضَرّ ، ويجعلك لبحر هذا الأَزل كأنك مكانٌ من البر

« * »

كان السجين في بَهْو المحكمة فصعد به الجند الى غرفة « قاضي الإحالة » (١) ووَقَفوهُ ساعة على مَطَلٍّ بين يديهِ فِناء واسع أسفلَ منهُ . فتحوّل الناس الى هذا الفناء وتحولتُ معهم وكان البطل يلوح كطرف المِئْذَنة فما هو الا أن أدار عينيه في الناس حتى استقرَّ بهما على ناحية فنظرتُ حيث نظر فاذا داءُ قلبه وقلبِ كل من رأى ستٌ نساء وفتًى وطفلان ورضيع ؛ فأما واحدة منهن فأمه وأما الثانية فزوجُهُ والباقيات أخواته والفتى فرعُ أبيهِ (٢) ثم الطفلان والرضيع أولادهُ وقد جاءوا ليودّعونه ويستودعونه وحسبوا أن ليس بين رجلهم وبين الموت الا هذا القاضي الذي مثَلَ ببابهِ فطرح الموتُ ظلاً فكره على وجوههم

(١) هو القاضي الذي يسمع القضية فان رأي البراءة حكم بها والا أحال المجرم على محكمة الجنايات لتقضي في أمره

(٢) أخوه وهي كناية

وأخذ الرعبُ مأخذَهُ فيهم فما كانوا الا كما يجتمع أهل الميت حول الميت

رأيتُ أمه المفجوعةَ جالسة لا تحملها رجلاها وعلى صدرها ذلك الرضيعُ تضمهُ كأنه قطعة من قلبها رجعت اليهِ ، وتشدُّ عليهِ بيديها شَدَّةَ الجزَع والحنان كما لو كانت تحسبهُ صِلةً بينها وبين ابنها تنقل هذه الشدة بعينها اليه كما تنقل الكهرباء حركةَ المتحرك ، وقد انطلقت دموعها وفي كل نظرة الى نكبة وحيدها مادةٌ جديدة للبكاء

وهي تنحني على قلبها حتى يدانيَ وجهُها الأرضَ كأنها شعرت بهِ ينكسر فمالت ليلتئم صدعٌ منهُ على صدع ؛ ثم تعود فتعتدل فيكاد ينشقّ قلبها فتضغطه بانحناءةٍ اخرى وهي في كل ذلك مرسِلةٌ عينيها تمطر مطراً . وكانت حين تنكُفُ دمعَها (١) وتُنَحِّيهِ عن خديها يتساقط من فروج أصابعها كأنه عددُ أيام شقائها

وَحسِبَ الرضيع أن هذه الحركة هَدْهَدَةٌ (٢) من

(١) النكف أخذ الدمع عن الخد بالاصابع
(٢) هدهدت الام ابنها حركته لينام

أمهِ لينام فنام هنيئاً على صدرها وأدفأهُ غليانُ هذا الصدر فضاعف لذةَ أحلامهِ . وانما هو طفل سماوي لايزال مَسُّ يدِ الله على جلده الرطب فلو زَفرت حولهُ جهنم فأحرقته لكفنتهُ نسمة من نَسمات الجنة ، وياسعادةَ من يستطيع بطبيعتهِ ان ينقطع من وسائل نفسه الى وسائل الله (١)

وأما زوجة الرجل وهي شابةٌ جزْلة الخَلْق ناضرةُ الصِّبا تركها الحزنُ كالمرآة المهمَلة تدل أنوارُ بريقها على مواضع الصدأ منها — فكانت واقفة تحمل على رأسها بُرْمةً أعدت فيها ماتعرف ان سيدها يشتهيهِ من طعامه ، كأنها تريد ان تجعل من هذا الطعام الذي يحبهُ رسالةً من الحب بين نفسها و نفسهِ ترسلها اليه في سجنهِ . ولما استقرت عينهُ عليها أرسلت كل عواطفها في مَجاري دمعها ، وقد أيقنت أنه قُطع بها دون عِمادِها وزوجها ووالد ابنها وكنزها الذهبي الذي لاتملك غيره ؛ فكانت تبكى لكل معنى من هذه المعاني بكاءً بعينه ، وتبكي على قدر وفائها

(١) والعجيب أنه لايستطيع ذلك الا اصغر من في الانسانية من أطفالها وأعظم من فيها من أنبيائها

الذي لا حدّ لهُ وحبها الذي لا صبرَ معهُ ومصيبتها التي لا سبب فيها من أسباب العزاء ، وكل نظراتها كانت تقول لزوجها : لكَ ما أبكي(١)

وأحاط بها أخواته الاربع صُفرَ الوجوه ساهماتِ الخدود ذابلاتِ الأعين كأنما تدلّين الى الارض من مشنقة. والبنت مُقطعة من أمها ولكنها في الحزن على أبيها أو أخيها بعدة أمهات ، فهل تُراها لا تستوفي في بطن أمها الا نصفَ حياتها كهيأتها في الدنيا ..... ويبقى النصفُ الآخر في أخيها فان مرض خامَرَها نصفُ الداء وان مات وقع عليها نصف الموت ولا يكون حزنها عليهِ الا هدّة في حياتها لا يمكن أن تُبنى ؟

أما أخو السجين فوقف ناحيةً عن النساء وجعل يبكي ويَعصِر عينيه ولا أدري ان كانت الفِطرةُ هي التي أبعدته عنهن حتى لا يشبههن بوجه من الشبه ولو كان دقيقا كهذه الخيوط من الدمع . أم هو انتحَى جانبا كيلا تتصل بهِ

(١) أي ابكي لك وحدك لا لخاصة نفسي

عَدوى الضعف وليستطيع أن يبكي على أعين الرجال بكاء رجل فى دمعه شيء من القوة . أم هو انتَبَذَ مكانَه ليتكلم مع آلامهِ فان الآلام تتكلم ولكن بإِحساسنا، وكان لهُ مع أوجاعِ قلبه حديث طويل ؟

وأما الولَدانِ فرَبَضَ أحدهما في الأرض ووقف الآخر لانه أكبر منهُ قليلا وكلاهما ضامرُ الوجه مُتَقَبّضٌ منكسرٌ من هَوْل ما يرى . وكانت عيونهما الحائرةُ تدل على أنهما بإِزاء حالة غير مفهومة فأبوهما حي لم يمت وعيونُهما مكتحلة بعينيه وليس بينهما وبينهُ إلا ارتفاعُ شجرة .... فلِمَ لا يصلان اليهِ أو يصل اليهما وعلامَ هذه المَنَاحةُ ولا ميت وفيمَ هذا الجمْعُ ولا معركة ؛ أخذا يدرسان الدنيا كلها في مُعْضِلتها الاولى من حيث لا يفهمان شيئاً وبدأ العدل الانسانيُّ الرحيم يُخَشِّن صدرَهما ليعلما ذاتَ يوم معنى الظلم الذي يكون مرة باعثاً على العدل ويكون مرة هو إياه

ألا ويحكِ أيتها الانسانية ظالمةً أو مظلومة ، ان أمامك من هذين الطفلين الموتورين آلتي تصوير قد نقلتا

هذه الصورةَ وستحفظانها الى يوم ما ••••••

صورة بَشِعة على تلوينها إذ لا ســوادَ فيها الا من الخطوط ولا بياضَ الا من الدموع ولا صُفرة الا من الوجوه ولا حُمرة الا من لهب القلب . وسيمضي كل شيءٍ لسبيلهِ فيُنْسى ولا تُنسى لانها مادة عـامية مصوَّرة كرسم تعليميّ فى جغرافيا الجريمة

هي اليوم صورة طفل فهي للحفظ ، وغـداً صورة شابّ فهي للعلم ، وبعد غد صورةُ رجل فهي •••• للعمل

« ☼ »

كان السجين كالميت تراهُ تحت أعين أهله وهو في عالَم آخر ، وبين أيديهم وكأنهُ حسرةٌ بعد أمل ضاع . وكان كلاُمهم سَمْعَ أذنيهِ (١) ولـكنه من معنى ما يحب على بعد ما بينهُ وبين المستحيل . ابتلاهُ الله بالجريمة ثم ابتلاهُ بالقصاص ثم تم عليهما بمصيبة في مقدار عذابهما معاً وهي رؤيةُ أهله جميعاً فى حالة لا يملك فيها قدرةً ولا صبرا

(١) أي يصل الى سمعه فيعيه

إنما يُمسك الانسانَ قوتان : قدرةٌ يمضي بها فيدركُ فيطمئن ، أو صبر يقعد به فيعجز فيطمئن . ولكنه متى امتُحِنَ بشيء لا يقدر عليه وهو مع ذلك لا يصبر عنهُ فقد وضعه الله من ثَمّتَ في حالة لا إنسانيةٍ ولا وحشيةٍ ولا دونهما ولا فوقهما إذ يسلّط عليه كل القُوى التي في داخله تدفعه بأشد العنف الى القوى المحيطة بهِ ، ويُغْرِي المحيطةَ بهِ ترميه الى التي في داخله فما إن يزال مرتطِماً بين هذه وتلك وكأنهُ لشدة وقعهما يُحطَّم تحطيماً بين مِطْرقتين

وهذه البليةُ من العذاب لاتتفق الا في أشد مايكره الانسان حين لا يجد منه مَفرًّا ولا يُطيق عليه مَقرًّا ؛ وفي أشد ما يحب حين لا يقدر الى حد اليأس ولا يصبر الى حد الجنون . وأحسبُ مافي الارض منتحرٌ قطّ أزهق روحه — ان لم يكن مجنوناً — الا وهو في احدى هاتين الحالتين . فان وجدتَ من يُثَبِّته الله على حالة منهما وجدته كالبقية من الحريق إن لم تكن احترقت وذهبت فقد

احترقت و بقيت

« ٥ »

أَجرم السجين فأُخِذ بذنبه فما ذنوبُ هؤلاء جميعاً ؟ أهي احدى الحقائق العُليا الغامضة التي من أجل غموضها واستبهام حكمتها يقول الحائرون كلُّ شيء هو كل شيء ؟ ويقول المنكِرون لاشيءَ في كل شيء ؟ ويقول المؤمنون كل شيء فيهِ شيء ؟

أم هي الحقيقة السهلة الواضحة من كل جهاتها وإن أصبح الناس لا يفهمونها اذ لا تحتاج الى فهم وانما هم موكَّلون بما خفي ودقّ كدأْبِ هؤلاء العلماء والفلاسفة الذين يقطعون العمر في دقيق المباحث وعويص التراكيب ثم لا ينتهون من نتائجها إلا الى النواميس المكشوفة انكشافَ النور لكل ذي عين تبصر . أهي الحقيقة السهلة التي تجزأت من أجلها آية الله فيقول المنكرون لا علم ؛ ويقول الحائرون لا علم لنا ؛ ويقول المؤمنون لا علم لنا إلاَّ ما علَّمْتَنا (١)

(١) في القرآن الكريم عن لسان الملائكة يخاطبون الله عز وجل « قالوا

ألا أيها القلبُ الانسانيُّ المعجز . ان أيامك كلَّها مُضِيٌّ في سبيل الموت الأُول كما هي مضي في سبيل الحياة الأُخرى فأنت تسير في طريقين معاً وهذه هي معجزتك التي لا تُفهم (١)

ونحن من ظلام الدنيا ومن بحثنا عن الحكمة الالهية الصريحة بوسائلنا الانسانية العاجزة كالذي يبغي أن تَطلُعَ عليهِ الشمس في ليلهِ ويبقَى لهُ مع ذلك ظلام الليل . يريد مستحيلين لا مستحيلاً واحداً . وهذا هو عقلنا الذي لا يُعقَل

لو أراد الله بك خيراً أيها القلب المسكين لما جعل شقاءَكَ يُربَّى فيك تربيةً كما تربى أنت في الانسان وكما يُربى الانسان في الحياة . فالحب والرحمة والشفقة والصداقة وكل المعاني التي هي روابطُ الانسانية في اشتباكها ؛ هذه كلها هي وسائل مَسَرتك في حالة ، وهي بأعيانها

لاعلم لنا الا ما علمتنا » وهو قول الملائكة فكيف بالناس ؟

(١) للحياة الآخرة واجباتها وأعمالها ولهذه الحياة الدنيا واجباتها وأعمالها وقلما أشبهت واحدة واحدة والانسان يعمل لهما معا ويريدهما معا

أسبابُ عذابك فى حالة اخرى

جذورٌ استترَّ بها الغيب (١) وفى أيدينا فروعُها وأوراقُها وثمراتها . تلك هي شجرةُ الحياة فانما حلوها ومرُّها وما يَفيء من ظلها وما ينحسر ، ونُشذِّب (٢) منها فتنمو وتزيد ونُغير من أشكالها ونلوى أو نكسر من فروعها ما شئنا ونترك من ثمرها ما ينضج الى أن ينضج أو نتناوله فجًّا لا يُساغ ولا يُطعَم . أما أن نجعل مرها حلواً ونُرسل المادة الحلوة بأيدينا فى جذور الفروع المرة التي لا تُؤتي ثمرَها إلا عِلَلاً ومصائبَ ونكبَاتٍ وموتاً ، فهذا ما لا سبيل اليه ولا يُغْني فيه غنَاء ولا تبلغ منهُ حيلة الاَّ اذا استطعنا أن نُطفيء الفرعَ الأحمر من النار فيتحولَ في أيدينا الى شيء آخر غير الفرع الأسود من الفحم

تأتي النعمة فتُدنى الأقدار من يدك فرعَ الثمر الحلو وأنت لا ترى جذره ولا تملكهُ . ثم تتحول فاذا يدُك على فرع الثمر المر وأنت كذلك لا ترى ولا تملك ، ألا فاعلم

(١) خفيت فيه (٢) تشذيب الشجر تقطيع فروعه لينمو

أن الايمان هو الثقة بان الفرعين كليهما يَصلانِك بالله ؛ فالحلو فرعُ عبادته بالحمد والشكر وهو الأحلى عندك حين تذوقهُ بالحِس ، والمرُّ فرعُ عبادته بالصبر والرضا وهو الأحلى حين تذوقهُ بالروح

القلبُ الانسانى ميدان تقتتل فيه القُوى الأرضية والسماوية فلا بد فى النصر والانخذال جميعاً من الدم يذهب كلّهُ أو بعضهُ ؛ والجِراح تبرأ أو لا تبرأ ؛ والآلامِ تُنسى أو لا تنسى

لا بدّ ؛ لا بدّ ؛ لا بدّ

« * »

وجاءت حافلة السجن فركبها السجين ومضت تجرها البغالُ طائعةً منقادةً كما تنقاد اذا هي جرت مركبةَ ملك وذهبت وما تحفِلُ بشيء من الدنيا وسياستها وآدابها وأحكامها ما تحفلُ بهذا السوط الدقيق المسلَّط على ظهورها .... أما أهلُ الرجل فتهالكوا وراء العربة ، فالشاب يَخْطِفُ في عَدوِه خطفاً مُنكَراً كأن قربهُ منها يوصِّل بعضَ أنفاس

الحرية الى أخيهِ ، والنسوة يَهْتِكْنَ فى جريهنَّ وكلما أبعدت الحافلة علا صُراخُهن ليبلغ السجينَ منهن شيء ما ، أما الطفلان وجدّتهما فوقفوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم ولكن نظرات الجدة ارتمت الى العربة فلما غابت عنها ارتمت الى السماء

وأما الرضيعُ ، هذا اليتيمُ في حياة ابيهِ ، هذا المسكينُ الذي ابتدأ تاريخه بجريمة لا يدَ له فيها ، هذا الضعيفُ الذي لايزال جلدُه أرقَّ ديباجةً من ورق الزّهر ومع ذلك تُدق فيهِ منذ الآن مساميرُ الفقر واليُتم والضياع . أما الرضيعُ اليتيمُ المسكينُ الضعيفُ فكان وحدَهُ بين هذه المصائب الماحقةِ دليلا على الأمل الانساني في رحمة الله إذ فتح عينيهِ للنور وابتسم

« ٥ »

نَزَتْ كَبِدي (١) لما رأيتُ الحبَ الهالك يَستنفضُ امرأةَ السجين ويسوقها جامحةً فى عِنَان الغيظ تَتَرامَى على وجهها . كانت المرأة غريقة فى يأسها وكان شاطىء

(١) اضطربت فى مكانها من الاشفاق ونحوه

الأَمل يفرُّ أمام عينيها فراراً لأن بينها وبينه موجةَ دمعها

وقد صدَع الحب في قلبها صدْعاً ليغرزَ فيه الشوكةَ المُستَجِدَّةَ من ألم الفراق لمن تحبه ؛ تلك الشوكة التي ما نفذتْ قلباً فاستقرت فيه إلا جعلت الحياة كلَّها معانيَ شائكةً حتى تُحطَّمَ أو تُنتزَعَ

امرأة والهةَ فيها نفسُها المعذَّبةُ وفي نفسها رجلُها المعذَّب وبين هذين طفلُها اليتيم الذي يقتضيها أن تظلَّ حانيةً عليه حنوَّ أبوين ؛ فهي تجمع على قلبها عذابَ ثلاثة قلوب وتتألَّم بنفسها الواحدة ألمَ الرثاء لزوجها الذي نزَلَتْ به العقوبةُ في جسمه وروحه ، وألمَ الإشفاق على مجدها الذي نُصِبَ على أعين الشامتين في موضع الذِّلة ؛ وألمَ الرحمة لطفلها الذي بلغ سنَّ الهم وهو لا يزالُ في الثَّدي [1] وألمَ اللَّوعة لحياتها التي لم تعد الأيام تناجيها بغير لغة الدمع ، وألمَ الأسى على شبابها الذي تساقطت آماله كما تَحُط الشجرةُ الخضراء ورَاقَها لتجِفَّ

(١) أي الرضيع وتقول مات في الثدي اذا مات رضيعا

ألا يا ماءَ البحر ما أَنت على أرض من المِلْح ، فبماذا أصبحتَ زُعاقاً (١) لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ولكنك يا ماءَ البحر ذابت فيك الحكمةُ المِلْحة .....

« * »

ما الفراقُ الا أن تشعر الأَرواح المفارقةُ أحبتَها بمسّ الفناء لان أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففي الموت يُمَس وجودُنا ليتحطم ، وفي الفراق يُمَس ليلتوي . وكأن الذي يقبض الروحَ في كفه حين موتها ، هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه

وإنما الحبيبُ وجودُ حبيبه لأن فيه عواطفَه ، فعند الفراق تُنْتَزَع قطعةٌ من وجودنا فنرجع باكين ونجلس في كل مكان محزونين كأن في القلوب معنًى من المَنَاحة على معنًى من الموت

وكل ما فيه الحبُّ فهو وحده الحياةُ ولو كان صغيراً

(١) الزعاق الماء المر لايطاق شربه وتأتيه المرارة من شدة الملوحة

لا خَطَرَ له ولو كان خسيساً لا قيمةَ له ، كان الحبيب يتخذ في وجودنا صورةً معنوية من القلب ؛ والقلبُ على صغره يخرج منه كلُّ الدم ويعود اليه كل الدم

في الحب يتعلم القلب كيف يتألم بالمعاني التي يُجَرِّدها من أشخاصها المحبوبة وكانت كامنةً فيهم ؛ وبالفراق يتعلم القلب كيف يتوجع بالمعاني التي يجردها هو من نفسه وكانت كامنةً فيه . فترى العمر يَتَسَلَّلُ يوما فيوما ولا نَشعر به ، ولكن متى فارقنا من نحبهم نَبَّه القلبُ فينا بغتةً معنى الزمن الراحل فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتطاير عدة سنينَ من الحياة . وترى العمر يمتلىء شيئا فشيئا ولا نُحس الزيادةَ كيف تزيد ؛ فاذا فارقَنا من نحبهم نَبَّه القلب فينا معنى الفراغ فكان من الفراق على أكبادنا ظمأٌ كظمأ السِّقَاءِ الذي فرغ ماؤه فجفَّ وكان الفِراقُ جَفَاءا

ألاَ ياطائر الحب إن لك اذا طرتَ جناحين فما أقرب من هو على جَناح الفراق ممن هو على جَناح الهجر

الفصل الرابع

« الرَّبِيطَة [(١)] »

واطَّلعَ في سمائي هذا الشيطانُ الذي تتلألأ على وجهه مَسْحَةُ مَلَك [(٢)] فهو أخبث الشياطين لأنه يسوق الى الهلاكِ في نُزْهَةٍ على شاطيء نهر الحياة

هي فلانة ؛ كانت امرأة فرنسية ربيطةً لرجل عرفتُه قديماً لأعرفها منه فأكتب عنها رأيَ العين وأكونَ أفهمَ بها وأدنى الى حقيقتها كما يريد عالم الطبيعة أن يكتب عن بُركان يتأجَّجُ فهو يَدْأَفُ اليه [(٣)] يطأ على أرض كأن ترابها حريق يتنفَّس آخر أنفاسه

ما ساح رجل في العُمران ولا ضرَبَ في مَجْهَل من الأرض ولا ضلَّ في تِيهٍ منها ولا كشف للناس غَمْضاً من

(١) هي المرأة التي ترتبط بأجر أو بعقد مدني ... في بيت رجل منزل منزلة الزوجة على أنها مدبرة بيته ، وتكون ساقطة المعنى شريفة الاسم « Maîtresse » وهذا الجنس من النساء طاعون الزواج في هذا العصر
(٢) كناية عن روعة الجمال (٣) يمشي في بطء فوق الدبيب

غُموضها [1] ولا تطوّح في بحر من بحارها الا وأنت واجدٌ من مثل ذلك معانيَ في نفوس النساء ؛ كأن هذه المرأة تمثال مصغر ُخلق بمعانيه في مقابلة الأرض بمعانيها ؛ فهي في روح إمّا الرجل الخِصبُ أو الجدب ، وهي له في الحياة إما المِلحُ أو العَذب ، وهي منه العامرُ والخرابُ ولكن في القلب

((*))

كان صاحبنا فتى نَاعِمٌ عليه غُرّةُ الشّباب وقد رقَّ حتى كاد يخالط حدَّ الانوثة ، ولان حتى قارَبَ أنْ يفوت معنى الرجولة ، وظَرُفَ حتى أوشك أن يكون إنسانا تتفتح في روحه معاني الزهر ؛ ولكنك اذا كنت رجلا صحيحاً أمرَرْتَه على عينيك كما تمرّ كتابا لا تريد أن تقرأه : فقد تعذن في أوربا ولبثَ عن قومه ما شاء الله [2] ثم رجع اليوم كأن أمه لم تلده وكأن أباه جدّه الأعلى . . . فبينه وبين أبيه هذا بضعة أجداد منهم المسيو أو المستر أو السنيور أو

(١) الغمض المكان المجهول من الارض (٢) أي غاب عنهم تقول لبث عن أهله كذا ثم أتاهم

الهر . . . وأصبح يُحس أن كل شيء في هـذا الاجتماع الشرقى مسلّط على نفسه الرقيقة النحيلة بالغِلْظة والجفاء والعنَت والأَذى كأَنه رحمه الله . . . ابنُ الضَّبّاب فلما برز الى هذه الشمس وضَحَا في أشعتها الحامية جعل يذوب ويتبخّر . . .

وكان من هؤلاء الفتيان الذين اذا تعلموا في اوربا نَفَوْا جهلهم بالعلم ثم نَفَوا علمهم بجهل آخر . . . ثم جاؤنا كحرفَي النفي ما ولا . . . فليس منهم الا التـكذيب والإنـكار والشك ؛ وتراهم أظرفَ وأجمل وأزهى من فَراشة الربيع لا يريدون الحياة الا أزهاراً ولا يُطيقونها الا ربيعا ، وعلى أزهارهم وربيعهم فليس لنا منهم الا نُقَط من الألوان وأصوات من الطنّين . . . وأجسامٌ ليس فيها رجالها

« * »

سألت هذا الفتى مرة : أنت مصري ؟ قال ووطني صميم . قلت أفترى انك تصلح في علمك وتهذيبك أن تكون مثالا يتأسَّى بك نَشْءُ بلادك ؟ قال اني لأرجو

ذلك . قلت وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشرقية ومساواتها بالرجل في الحرية المطلَقة وبعثها من هذه القبور التي تسمى المنازل ؟ قال ذلك مذهبي . قلت فكيف ترى اذا اقتدى بك المصريون فأصهروا الى الاوربيين وخلطوا الشملَ بالشمل ؟ قال لعل ذلك خير الطبّ لبلادنا فلا مَعْدِلَ عنه في رأيي إذ يأتيها بالدم الجديد ويُدْمِج في طباعها النظام والدقة ويبني البيوت من داخلها . قلت أحسنتَ بارك الله عليك ، فكيف ترى اذا سألناك التسويَةَ وقلنا لك دع أختك تَصْبُ الى رجل أوروبي وتتزوج منه إجارَةً . . . وتأت به الى مصر كما أتيت أنت بصاحبة بيتك ثم لتفعلْ كل امرأة مصرية فعلها فيكون لكم أوربيات ويقوم عليهن أوربيون . . . قال أعوذ بالله . قلت فعَل الله بك وفعل ، أفيبلغ من غفلتك أن لا تعرف لعنةَ الله الا اذا رأيتها ملء مملكة ، ولا تعرف حقّ وطنك فيك الا حين تراه غريباً منقطعاً لا حق له في واحد من أهله ، ولا تدرك واجب التضحية بلذتك وشهوات نفسك

الا بعد أن ترى الوطن من اضطراب الموت في مثل حال الذَّبيحة تَدْحَصُ برجلها تحت سكين الذابح ؟

قال فما أنا وأمثالي الا شذوذٌ من القاعدة التي يجب أن تبقى أبداً قاعدة . . قلتُ فعليكم غضبُ القاعدة ومَقْتُها وسَخْطَتُها ، والله لأَن تُفْجَعَ البلاد فيكم جميعاً وتستركم بالقبور رُمَّةً بعد رُمَّة ، خيرٌ من أن تتقلد منكم بَلِيَّةَ الحياة في اختلاط الأَنساب وارتداد الأَسماء العربية عن دينها (١) وكساد النساء الشرقيات وتخنث الرجال الشرقيين وتدسُّس هذه العُروق الفاحشة الأثيمة في ذرية الوطن .

قال فكم من امرأة وطنية هي حمل على ظهر زوجها . قلت وكم من امرأة افرنجية هي كَيَّةٌ على قفا صاحبها (٢) . . .

قال فماذا نصنع ونساؤنا جاهلات لا صبر عليهن ؟ قلت أفتُزهِق روحك اذا مرضت أم تَطِبُّ لمرضك في أناة وصبر ، وهل تفر من وطنك اذا ابتلاك بتضحية أم تثبت

(١) يسمون أولادهم أسماء ينكرها الدين والوطن معاً

(٢) هذه كناية عن المرأة يسكت الناس عنها أمام زوجها فاذا ولى عنهم قالوا في ظهره ما قالوا و . . . وكووا قفاه

وتتجلد . ثم ماذا أفدنا من علومكم اذا لم يحمل كل عالم منكم جاهلةً منهن فيعلّمها ويثقّفها ويُخلِصها إخلاصَ الذهب الصافي ويربح ثواب الوطن فيها . واذا كنتم تهملون نساء بلادكم لانهن جاهلات فحدّثني أفلا يزيدهن ذلك جهلا وضياعاً ويضاعف مصيبة البلاد فيهن وفيكم ويكون تركهن الذي قد يُستَصلَح سبباً لما وراءه من الفساد الذي لا اصلاح له . وهل ترون المرأة الوطنية منكم الا كالزهرة نضرتها في غصونها وأوراقها فاذا طرحتها غصونها عمل مَنْبِتُها الاجتماعي فيها وهو التراب حين تتصل به عكسَ ما كان يعمل حين لم يكن يصل اليها الا من فروعها وأوراقها غذاءً يحمل روح الماء وروح الشمس ؟

أما والله إنكم فئةٌ لا تُعد الا في مصائب وطنها وانكم لكالأجنبي مادام احدكم لا يَصِلُ أُمومةَ أولاده بتاريخ أُمه ، وانكم لكالغاصب مادمتم تغصبون حقّ نساء الوطن في رجال الوطن ، وانكم لكالعدوّ ما دام كل واحد منكم حرباً على بنت . ألا فدعونا من الجاهلين فقد يكون

من بعض عذرهم الجهل، ومن المتلصصين فمن عذرهم الحاجة، ومن المفسدين فمن عذرهم سوء التربية، ومن الساقطين فعذرهم ضعفُ النفس، ومن الخاملين فعذرهم الترك والاهمال، ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى فكلها مُسَوّغةٌ أعذارَها المحمولةَ على محاملها وكلها أقربُ الى الدهماء منها الى المتمايز والى أخلاط الناس منها الى الخاصة والى السفْلةِ منها الى العِلْيَة. ولكن ماعذركم أنتم عن شهوات أنفسكم وإيثاركم هذه الشهوات واستهتاركم في هذه الأثَرة: يعجزُ أحدكم أن يَكْسِر جِمَاحَ نفسه فيجني على نفس من نساء وطنه هي التي زهد فيها واستبدل منها، وعلى نفوس من أبناء وطنه هم الذين سيُعْقِبُهم من ذريته ويأتي بهم للبلاد أجساماً غابت قلوبها ونفوساً بردت دماؤها، يَنْزِعُهمُ العِرْقُ الاجنبي من أمهاتهم اللائي وَلَدْنَهم اذا حَمِي دمُ البلاد لبعض أغراضها، ويكونون في أمراضها من أسباب موتها وفي صحتها من أسباب أمراضها

ما لكم تُنزلون أنفسكم منزلةَ الطفل البِكْر من أهله

ليس له الا حظوظه وشهواته مُسَوَّغا كلّ ما يقترحه عليهم لأنه هو كان اقتراحهم على الله ، محمولا على قلوبهم لانه بعض قلوبهم، يُفسد المتاعَ ويحطم الآنيةَ وتنزو به النعمة نَزْوَتَها فتجعل نصف عقله جنونا ونصف أدبه حمقاً ونصف المنفعة به ضرراً ونصف ظَرفه عنَتَاً ونصف لينه مشقَة ويكون خيره نصف الخير أما شره فشر اثنين . فهلاً كنتم من أهل بلادكم كالأب من أولاده يرى حقّ ضعفهم أكبر من الحق الذى لقوته وواجبَ مرضهم فوق الواجب لصحته ، فهو يبذل سَعَةَ نفسه في ضيق أنفسهم ويحملهم صغاراً ليجعلهم كباراً ويصبر عليهم حمقى ليجعلهم عقلاء ويرى عمره كأنه من بعض أرزاقهم وهو لا يستخلف من العمر شيئاً ، وحواسّه كأنها من بعض خدمهم وما له غير حواسه ، ويراهم كأنما جاؤا اليه من السماء بعد أن اشتروه من الله وباعه الله منهم بتلك النقطة الشَّاكة فيهم من دمه ؟

ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بعجاريث ، بدلا من هذه المواريث ؛ وجئتم بالسَّماد ، بدلا من هذا

الوِساد [١]، وبالبهائم للسَّواني ، لا بالحلائل والغواني [٢]؛ وببضائع الحوانيت ، لا ببضائع أنطوانيت . . . وليتكم اذ كنتم رجالَنا لم تغلبكم نساؤهم ، واذ كنتم سيوفَنا لم تأسِرْكم دماؤهم ؛ وياليتكم لم تتنعموا وتتأنثوا ، فكانت البلاد تجد منكم أهلَ البأس ، ولم تتعلموا وتتخنثوا ، فكانت الأرض على الاقل تعرف منكم أهلَ الفأس . . .

« * »

ذلك هو الرجل. أما صاحبته فامرأة فرنسية جميلة الوجه في طلعة الصبح ، شابة الجسم شبابَ الضحى ، مُتلهِّبة الأنوثة كشعاع الظهيرة ، رقيقة الطبع رقة الاصيل ، زاهية المنظر في مثل شَفَق المغرب من تأنقها ؛ ثم هي تنتهي من كل ذلك الى مَخْبَر أشدَّ ظلمةً من سواد الليل . . . . ومن أين اعتبرتَها ألفيتَها رذيلةً مهذّبة يترقرق فيها ماء العلم ويجول في حسنها شعاع الفلسفة كأنها عينٌ فاتنة تدور فيها دمعةُ دلال

(١) الوساد كناية عن الزوجة نفسها والمواريث كناية عنهن أيضا
(٢) الحلائل الزوجات والسواني جمع سانية وهي السواقي تدور فيها البهائم

ولم أكد أراها حتى أخذني جمالها فان لها عينين ركّبتا تركيباً يجرّ المصائبَ على القلب ، تُلقيان أشعةً ضاحكةً أو عابسة يُخلق منها للقلوب حوادث وتواريخ ؛ وترمي بنظرات تُبريء الصدورَ أو تُمرِضها ؛ وتبسم بوجهها كله نوعاً من الابتسام يكاد يسيل من كل ناحية في وجهها قُبلات ؛ أما افترارُ شفتيها فهو جمال على حِدَة يشبِهُ نقلَ معاني الخمر من فمٍ الى فم . . . امرأة ساحرة لا أدري ان كانت بُنِيَت على السحر أو على الحب ، ولا ان كان هذا الحب قد خُلق لعنةً عليها أم هي خلقت لعنة عليه ؛ والحب دائماً بَرَكَةُ امرأة ولعنةُ امرأة ، والتي تزرعه في كل مكان هي التي لا تحصد منه شيئاً فان نالها شيء منه كان تعباً عليها رَوْحاً لسواها . وأشد ما في هذه المرأة الجميلة من الفتنة اجتماعُ شهواتها في صوتها النّدِيّ المستَطْرِب المتحزّن (1) الذي لا يخلو أبدا من حرفٍ تسمع فيه هَمْسَ قُبلة من قُبُلاتها

بَيدأني مع كل ذلك استعصمتُ بفلسفتي وحكمتي

(1) فيه نبرات الطرب ونبرات الحزن

فلم أرها الا في مثل حريرة التفاحة إذا أفرط عليها النّضْج فابيضّت واحمرت وفاحت ولمعت وإنّ العَفن لبادٍ من تحتها يحذّر منها وينذِر ، وفي مثل فروة الدب استرسلت ولانت في نعومتها ولكن لا منفعة منها الا بقتل لابسها وإزهاق الحيوان كله في سبيل الجمال الظاهر من جلده ؛ ونظرتُ اليها نظرة تخطّت بها الشبابَ وأيامه فاذا هي بائسة أملقَ الدهرُ حسنَها [1] وكان ذهباً على جسمها وفضّةً ، واذا هي عجوزٌ هالكة قد انحنت تحت لعنات ماضيها وتركتها دنياها كالسجن المتهدّم لا يُذكَر مع انقاضه الا بلصوصه ومجرميه وعقابهم وآثامهم ، وتَشقى بمعانيه بعد الخراب حتى حجارتُه وحتى ترابه . وأبصرت في هذه الحسناء اللّعوب التي تستوقدها الضحكةُ بعد الضحكة تلك الهامدةَ المريضة التي تطفئها الحسرةُ بعد الحسرة ، وسقطت الشجرة الخضراء النامية فاذا في مكانها جِذْعٌ خشبيٌّ مُلقىً زَهِدَ فيه نور السماء وطين الأرض معا . وتمثلت لي هذه المتكئةُ على

(١) أفناه وأفقرها منه كالاملاق من المال

طِرازها وأرائكها تتبرّج في سُندسُها وحريرها فرأيتها ممدودةً في حفرتها مسجّاةً بأكفانها قد هِيلَ عليها ترابها ولم يرحمها راحم ولا النسيانُ يستر رذائلها عند من عرفوها ، وقد اجتمع عليها بعد عشاقها من دود الناس ... عشاق آخرون من دود الأرض ؛ ويفني جسمها حين يفنى ويبقى ضميرها الروحي الى الأبد ضميرَ مُومِس

فلما وضعتُ أمرها على ما خُيّل اليّ من عاقبتها اذا هي تَفور كما يفور النبع القذِر بالحمأة التي فيه (١) ، واذا هي كالخشبة المتقدة في حريقها من فوقها ظُلَلٌ من النار ومن تحتها ظُلَل (٢) ؛ وإذا جمالها قد استحال في عينيّ وانفصل منها فأظهرها وظهر معها في بريق الزجاجة من الخمر بجانب السكير المتحطم تتساقط نفسه مرضاً وسكرا فكل ما كان فيها (٣) جمالا فهو فيه أقبح القبح

ورثيت لها أشد رثاء وأبلغه في الرحمة والرقة حتى

(١) الحمأة طين أسود منتن ، والاخلاق السافلة هي حمأة الطينة الانسانية
(٢) قطع كقطع السحاب (٣) أي الزجاجة

عادت نظراتها تَقطر على نفسي دموعا سخينة كدموع الذل. ويا حَرّةَ قلبي من الاشفاق عليها وأنا أرى في احمرار جمرتها سوادَ فحمها ، وفي أسباب سرورها أسباب همّها ؛ ويالهفي عليها إذ أرى هذه الجميلة التي لم تنظر أكثرَ ما نظرت الا الى خطيئة ، ترفع نظرها أحيانا الى السماء بقوة في داخلها كأنها تقول لمن يفهم عنها إن هنا القَدَر وهناك المقدِّر .

ويا بؤسها حين لم تعد تظهر في روحي الا كما يَتخايَلُ ظل القمر في الماء ، أنظر فيه الصورة من غير معنى والضوء من غير قَبَس وأرى فيه الخيال وليس فيه القمر

«*»

وأَلَمَّت بما في نفسي وكانت تقرأ في وجهي قراءة فأنه ليس ذو عينين ينكشف لعينيه سرُّ العاطفة الذي يَتَرَقْرَق في الدم الا من خالط القلوبَ وغلبَ عليها بخير ما في الخير أو شر ما في الشر ، فهو يَتَدَسَّسُ اليها مع ملائكتها أو مع شياطينها ؛ وانما خلقت هذه المرأة وأمثالها في هذا الجمال وهذا الظَّرف وهذا الفساد لتستطيع أَن تمزج

الشيطان بقلب من تَغَتَرُه(١) مزجَ المادة والمادة بواسطة بينهما من قوة ثالثة متهيئة لهما معاً، فهي بجوهرها مسلَّطة على القلب غالبة على أمره كتسليط السرور والكآبة وغلبتهما طبعاً بما فطر الانسان عليه. وقلّما لَصِق الشيطانُ بقلبٍ ما لم تكن في هذا القلب مادة من اللذة أو الكآبة فكلتاهما كيمياء الخطيئة والمعصية والشك. ولَربَّ عابدٍ زاهدٍ طاحت به كآبته فقذفته الى النار كما تقذف بالفاجر لذاته فيلتقيان منها في غَمْرة واحدة(٢) وإن كانا في العمل على طريقين مُتَدَابِرَيْن(٣) وما أشبه إسرافَ اللذة أن يكون الرجاءَ اليائس، فالمُسْتَهْتَر بهذه اللذة يَغْلو في استمتاعه غلوَّ من ظلم نفسه لا يَتَحرَّجُ ولا يتورَّع(٤). وما أشبه إعنات الكآبة(٥) أن يكون اليأسَ الراجي فالمبتلَى بالكآبة يَجفو عما عداها جفاءَ من ظلم نفسه لا يتسمَّح ولا

(١) تطلب غرته وغفلته لتغلبه على فضيلته وعفته (٢) الغمرة موضعاً كثر النار (٣) أي مختلفين متناقضين (٤) لا يمتنع من حرج أو ورع ولا يرعى قانونا ولا دينا (٥) ارهاقها وشدتها على النفس

يترخَّص[1]   والنفسُ الغالية التي جاوزت قدرها كالنفس الجافية التى انحطت عن قـدرها كلتاهما على طَرَف يمين الشر وشماله

((*))

ونظرت اليَّ تلك المرأة نظرة حزّت في قلبي لأنها لا تسألني المدحَ وكذلك لا تريد مني الذم ، وبعد أن رضيتْ ان تسمع لي كأنها تقرأ كلامى في كتاب ووافقتنى على أن تعتبرني مخاطبا فكرها دون شخصها ومُحاورا فلسفتها دون تاريخها قالت : أحسبك لست كغيرك من الناس. قلت ولا أنا كالملائكة . قالت فتعرف الخطيئة الانسانية وتقدرها قدرها ؟ قلت وأعوذ بالله منها وأتحاماها . قالت وتعرف ضعفَ الطبيعة ؟ قلت ومعاندتَها وصلابتَها أيضا . قالت فكيف تراني ألستُ نصف المسئلة السماوية على الأرض ؛ وهل أنا الامعنى متجسم من معاني القدَر، وهل خرجتُ من

(١) لا يتساهل فيما لا بد منه لنفسه وفي الحديث الشريف « ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه » اى المباح والمفروض معا

سُلالتي الا كما خرجت الخمرة من عناقيدها وهل خلقت جميلةً غالية كالدينار الا لتُشترى في بعض أوقات السعادة ؟ قالت أما المسئلة السماوية فأن كنتِ نصفها فقد كان الشيطان نصفها كذلك . وأما القدر المتجسّم فلعل الحريق في بيتٍ من نُكِبَ به أجملُ وأخف احتمالا وهو مع ألوانه الفنيّة . . . حريق . لا يسمّى أبدا الا حريقا . وأما الخمر فهل هي الا عفونة أسكرت لانها عفونة . وأما الدينار الذى تشترى به أوقاتُ السعادة فهو نفسه الذي يُغرِي اللصوص ويوجدهم ، وإذا كانت هذه السعادة كما تصفينها في نَشوة الخمر فهل تُشترى الخمر الا وفيها سُكرها ومرضُها وجنونُها ؟

قالت حدّثني لِمَ كان الحب إذن ، وهل خلق الا للاستمتاع به من حيث يتفق وعلى أحسن ما يتفق ؟ فقلت انما خلق الحب قوةً ليقيّد بقيوده كسائر القوى الطبيعية ؛ فأنتِ تَصدعين عنه كل قيوده وتتخذينه تجارة في النفوس فلا تَرُدّين يدَ لامسٍ ولا تتمنعين على دعوى فيها غنمها . . . . وبذلك تجرين مجرى القوة المدمِّرة ؛ ومن ههنا كان لك في

الاجتماع الانساني شأنٌ ليس كشأن المرأة بل كشأن المادة ، وكان بعض الآداب والقوانين ينزل منكِ منزلة المطافيء المعدّة للحرائق، وبعضُها بمنزلة السجون المرْصَدة للجرائم ، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهيأ للتاريخ السيء . وما ظلمكِ الاجتماع في شيء لأنك أنتِ في نفسك ظلم له ، وان الدواء الذي يُبرىء من المرض لا يُعدُّ مرضا للمرض وأهْوِنْ بذلك اذا عُدّ ما دام يُبرىء من العِلة، فان دَرْءَ المفاسد قبل جَلْب المنافع ودرءُ المفسدة هو في نفسه منفعة. قالت فكأنك تذهبُ الى القول بأن مَثلي مَثَلُ العقرب والحية وغيرهما مما لَدَغ أو نَهشَ أو سمّ وأن دَأْبِي في الاجتماع كدأبها فليس لها الا القتلُ حيث وُجدت ، ومَثَلُ الأَوبئة والحمّيات وما قَتَل وما أعدى فليس الا مُدافعتُها أو الفرارُ منها فراراً بالحياة لا بشيء دونها، وكأني في رأيك لست مخلوقة كالمرأة بل كحيوان للأذى والمقت والخوف؟ قلت بل مخلوقة مثل كلّ امرأة كانت وكلّ امرأة تكون أو هي كائنة ، ولكن فيكِ من الزيادة عليها زيادة ماء السّيْل على

ماء النهر وزيادةَ الحِدّة على الطَّبْع الرزين وزيادة الطيش على العقل . أفاذا طغى النهر فأفسدَ وخرّب ، وفارت النفس تَخمُقَتْ واعتدت، وطاش العقل فزلَّ وأخطأ ؛ نهض ذلك عندكِ عذراً في وجوب التخريب والاعتداء والخطأ وتسويغِها ووجب من ثَمّ أن تعتدل هذه الصفاتُ الجائرة على قلوب الناس وأن يطمئنوا اليها ويرضوها مُذْعِنين فلا يقيموا على النهر العاتي جبالا من السدود ، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجنا من الحدود ، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم إن كان عندك الفرار فعندنا القيود ... ؟ قالت كلاّ ما تبلغ بي الغفلة هذا المبلغ ولقد درستُ وبحثت وفي هذا الرأس ما في رأس رجل عالم فلا تظنّ غيرَه ، ولكني إن أجن لا اجْنِ إلا على نفسي وهي لي وحدى وأنا حرّة كيف أتولاها ، أفأنتَ رادّي الى العبودية ؟ قلت أنت حرة ما شئتِ وما وسعتك الأرض إذا كنت لنفسك وإذا كنت لا تتصلين بأحد من الناس اتصالَ العلة المهلكة أو المعجزة أو المذهلة أو اتصالَ الرذيلة السامّة بالدم النقي

قالت فانى لا أتصل بأحد ولكنهم يُغرَمون بى ويتنافسون عليَّ فأجد في تنافسهم لذة من أمتع لذاتى.

قلت وكذلك نردِمُ الحفرة إذا اعترضت طريق السابلة وقايةً لمن عساه يغفل فيعثر بها، فان بلغتْ أن تكون هاويةً طبيعية لا حيلة فيها ومَرَدَتْ بها طبيعتُها المنخسفة، ميّزناها بالعلامات وضبطناها بالحدود وسميناها بالأسماء وجعلناها آية التحذير من الهلاك حتى لا يَزِلّ أحد فيتردّى فيها؛ وإذا كان من لذّاتكِ أن تشهدى اقتتالهم عليك فهذا حَسْبُكِ فى أنَّ من تعاستهم أن يقتتلوا، وكنتِ ولا جَرَمَ فى لغة الاجتماع من بعض معانى الشقاء والتعاسة. ثُمَّ إن في تلك اللذة منك دليلا حيوانيا على أن فى طبعكِ من إناث البهائم الشاردة التي تقفُ ليتناحرَ عليها ذكورها وقوف المملكة المباحة تنتظر المنتصر، فتقتل بإباحتها كل النفوس التي زَهَقَتْ حولها، ولو هي لم تكن كذلك لم يكن شيء من ذلك. فكنتِ ولا جَرَم في لغة الاجتماع من بعض معاني البهيمة. ثم ان هذا وذلك فيكِ نَذِيرٌ بانقلاب

الانسانية ونزولِها دون حدها وتراجعِها في سبيل الجاهلية الأولى واتصالِها من كل ذلك بوحشيتها الغابرة كأَنْ لم يكن علم ولا دين ولا تهذيب فكنتِ ولا جرَم في لغة الاجماع من بعض معاني الرذيلة والسقوط

قالت هم لا يتناحرون عليَّ بأنيابهم ولا مخالبهم ولا قرونهم . . . وانما يفعلون ذلك بأموالهم . قلت فلا جرَم كنتِ بهذا في لغة الاجماع معنى من معاني السَّفَه والفقر والخراب

قالت ولكن كم من رجل أحبني فرأى فيَّ آيةَ الإبداع الالهي فكان لا ينالني الا كما ينال المؤمنُ لذةَ قلبه . قلت فهذا أبدع الاصنام وسلطها على الهوى ثم سلطها بالهوى على كهنتها وعابديها فما يرون الحجر المعبود حجَرا الا لأن عليه بناءَ ملكوت السموات . . . ولا البقرةَ المؤلَّهة بقرةً الا لأنها تجر محراثَ الوجود . . . ولا الحشرةَ المقدسة حشرةً تدِبُّ دبيبَها البطيء الا لأنها تحمل الخليقة . . . لا جرَم كنتِ بذلك في لغة الاجماع

معنى من معاني الضّلالة

قالت أتحسب أنك أعييتني في مأخذ الحجج واستنباط البراهين ؟ قلت فماذا ؟ قالت إني أعدُّ الزواج أَسرا واستعبادا وقد بلغت من العلم مبلغا لا أرى فيه أن تكون حريتي محدودة بسلطة رجل بين كلمتي لا ونعم ، فآثرت أن اتخلص من الحب بالوقوع فيه لأعرفه وعرفته لأتّقيه على نفسي واتقيته لأبتليَ به ولأُصرّفه في منافعي ؛ فليس لي في الاجتماع زوج ولكن لي الحب ، وليس لي فيه أهل ولكن لي الجمال . قلت أفلا يتسلّط على حريتك الدينار والدرهم... واذا أنتِ بقيتِ للجمال فهل الجمال سيبقى لك واذا كانت لك مُدةٌ في الحب فهل هو خالد عليك ؟ ألا ترين أنك تزرعين فى أيام الحب بذورَ أيام الحسرة وأنك متى كَبِرتِ عن سِنِّ المرآة . . . [1] فستنتهين لا َمحالةَ الى أمد من العمر يخيِّم عليك في مُظلِمة كالقبر لا نهار فيه ولا ليل .

(١) سن المرآة كناية عن زمن الجمال اذ هو العهد الذى تتخذ له المرآة حق لا غنى لجميلة عنها

وهل أنتِ من المجتَمع الانساني الا مَقَامَ الصبي من أهله إذ لا مَذْهب لك من دونه ولا غَنَاءَ في نفسك الا به ؛ أفترين للصبي أن يتفلّت من نظام أهله ويتحلّل من آدابهم ثم لا تكون وسيلتُه الى ذلك إلا أن ينقلب لصًّا بيته بيوتُ الناس جميعا فليس له في الاجتماع مال ولكن له السرقة . . . . وليس له فيه أهل ولكن له الحيلة . . . . بدلك ولا جرَم كنتِ في لغة هذا الاجتماع معنًى من معاني السُّخْرِيَة والمَقْت

قالت فأنا في الاجتماع تعاسة وبَهِيمَةٌ ورذيلة وفقر وضلالة وسُخْرِيَة . ولكن ألستَ ترى هذه الصفات بعينها في كل الناس على بعض التفاوت في مقاديرها والتنوع في أشكالها والاختلاف في أسبابها ؛ وهل الرجلُ الفاجر الا كالمرأة الفاجرة ؟ قلت لقد فَجَرَ من الرجال من لا تحصيهم الملايين فهل علمت أن فاجرا منهم حمل تسعة أشهر ووضع . . . ألا ترين أن الطبيعة جعلت لكلٍ حكماً وهيأت لكل موضعاً ؛ وهل سواءٌ في طبيعة الألم وخَطره

وعاقبته على الحياة أن يكون الدُّمَّل على ظاهر الجلد حيث يتلَذّع على نفسه ويُرى ويُحَدّ وأن يكون في باطن الجوف حيث يخشى منه على غيره أكثر مما يُخاف على موضعه؟

قالت فكأن الرجل عندك أطهر فجورا . . . . من المرأة.

قلت بل هو هي في اللعنة والسقوط والنّعل أخت النعل . . واثنتاهما على طِراقٍ واحد[1] ولكنه إن يكن أعقلَ من المرأة بفكره فهي أعقل منه بحواسها ؛ وان يكن أقدرَ في قوّته فهي أقدر في عواطفها ؛ وان يكن في البَليَّة عودَ الثِّقَاب[2] . . . . فهي بعدُ الحريقُ كله . ولذا كان من الطبيعي أن تُحاط المرأة في الاعتبار بالمعاني الاجتماعية الكبرى إذ كانت هى الغَرَضَ الذي تَستَتِبلهُ تلك القِسِيُّ الرامية[3] . فهى فى معنى الكمال الأصل لأنها الأمومة ؛ وهي في العفّة الأصل لأنها الزوجية ؛ وهي في الحياء الأصل لأنها العِرْضُ ؛ وكذلك هي الأصل في المعركة

(١) أى قطع واحد يقطع جلد احداهما على قدر الاخرى (٢) عود الكبريت وهو قدحة من الحريق (٣) اى ترميه وتستهدفه وتسدد اليه

الجنسية لأَنها المقَاومَة والمدافعةُ للرجل ؛ والأُصلُ في الفضيلة الانسانية لانها المَنْشَأُ والمَرْبَى للطفل ؛ والاصلُ في الشرف الاجتماعي لانها المثالُ الأَدبي للجميع .

ومن ثَمَّ كان سقوطها سقوطا لهذه المعاني كلها فهو تهدُّمُ الأساس لا الحائط وفساد الجِذْع لا الفرع وعلةُ نفس الاجتماع لا علةُ جسمه

هيهات هيهات فلن تشعر المرأة الساقطة الا شعور من فقدت نفسها التي كانت نفسَها وبُدِّلتْ اخرى لا تلائمها ، فهي أبدا هائمةٌ وراء نفسها الاولى تبحث عنها ولا تَدْساها لأن ذلك الأصل الطبيعي لا يزال يُنَاجيها في قلبها بلغة الأُمومة والزوجية والحياء والفضيلة ؛ وما نفسها الشريفة الا جوابُ هذه اللغة وهي ليست فيها فكأنها تحمل على حياتها أربع جرائم في جريمة ، هي أشقى النساء ترى في ذات عقلها البرهانَ العقلي على انها امرأة ساقطة

((*))

فتَغَرْغرتْ عيناها بندًى رقيق من الدمع وقالت

لما كنتُ فتاة .. فقطعتُ عليها الكلام وقلت : في تلك الفتاة كل البراهين فسليها ، انها هي نفسك الهاربة منك ؛ فَوَجَمَتْ هُنَيهةً لهذه الكلمة ثم انهملت عيناها انهمالا وجاءها الدمع الطاهر يجرى من أقصى الطفولة ؛ فَخَالطني بَثُّها وحزنُها كأن دموعها تسقط على مواقعَ من نفسي ؛

فقلت أتأذنين في كلمة ؟ قالت بل أسألك أن تتكلم فان مدامعي هذه عرضت لي كالمطرة السائحة في حَمِيم القَيْظ من صَمِيم الصيف على أرض مُغْبَرَّة مقشعِرَّة تثور سُخْطاً على كل قدم تطأها ، وان فكري ليكلمني الساعةَ بلسانك كما يَدْوِي الناقوس بصوته العالي الرنّان بعد أن كان هذا الناقوس مختنقاً فيّ بما يُطيف به من الضغط فكان لا يدقُّ الا دقّاتٍ مُصَمَّتَةً لا رنين فيها كأنه ناقوس من الخشب

آه لقد كنتُ كالغدير الصافي لا يعرف ماؤه الا وجهَ السماء وضوءَ القمرين وأخيلةَ النجوم وظلالَ الشجر والنبات فأصبحتُ كالماء الذى كَثُرَتْ وارِدَتُه من البهائم

فهي تختبطه بأرجلها وتضيف الى وحوله وحولها ولا تستعذبه الا أن تُغشيَ أعلاه بطبقة من أسفله (١) وكلما تراءت صورها في كُدورة الماء حسبت ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيمية ولا تعلم أنه يلعنها باظهار بهيميتها لأعينها لو أنها تعقل أو تعي

أيحسبون أن قلب المرأة حين يُشترى بالمال يكون أطهرَ من خرقة قذرة تتناولها يدٌ أقذر منها ، أو أثمنَ من فتاتِ مائدة يترك لحيوان أعجم ؟ ألا إن قلب المرأة لا يباع أبداً وإنما هي حين تبيعهم تبيعهم معِدتَها باسم القلب . . . إنك إن لم تأخذ القلب هبةً ممن تحبها فما أنت من حبها في (خُذْ) ولكن في هاتِ وأخواتها . . . . . .

يحسب الناس أنه لا تُفرِّط امرأة في الحب ما تفرّط المرأة الساقطة وما علموا أنها لا تجد الرجلَ فتجد الحب . إنما الرجال في عين هذه المرأة رجالٌ مصنوعون فهي معهم امرأة مصنوعة تملك كلُّ رجل إغضابها لأن

(١) كذلك تفعل البهائم في الماء الصافي اذا وردته فتخبطه بأرجلها

صناعتها إرضاءُ كلّ رجل ؛ ولعل هذا من رحمة الله بها فان أكبر شقائها أن تجمع الاقدار بينها وبين رجل تحبه وتستهيم به إذ تألمُ لذلك ألماً خاصا فيه تهكّم الرذيلة والفضيلة معاً. إن هذا الرجل هو البَطَلُ الفَذُّ الذي يكون في قدرته أن يرجع لها ذلك العالَم الذي اطَّرحها ونبذها فهو عندها يَغْمُرُ الناسَ أجمعين (١) ولكنها قلّما وجدته الا اتعرف به حقيقةَ عارها ؛ وإذا قُدِّرَ للأعمى أن يُبصر ساعة واحدة ثم يرتدّ الى ظلامه فما أبْصَر ولكن تَضاعف له العمى

المرأة الساقطة يائسةٌ من البُعُولة (٢) وذلك عقابُ حياتها ، ثم هي لا تندفع الا في الطريق التي تكرهها وذلك عقاب نفسها ؛ فالله أرحم من أن يزيدها بلاءَ الحب الذي هو عقاب شرفها وفضيلتها ؛ فان ابتليتْ به فقليلا ما يتفق ذلك حتى إن الساقطة العاشقةَ عشقاً صحيحا وتبقى ساقطةً أندرُ وجوداً من البغيّ التائبة توبةً صحيحة وتبقى بَغِيًّا

« * »

(١) يكون فوقهم ويغطيهم فى نظرها واعتبارها (٢) الزواج

يا عجباً لضمير المرأة يَضِلُّ في ليل دامس من ذُنُوبها ثم تلمع له دَمْعَةٌ طاهرة في عينيها فتكون كنَجمة القطب يعرف بها كيف يتجه وكيف يهتدي وكيف كان ضلالُه .

وكأَن الله ماسلط الدموعَ على النساء وجعلها طبيعيةً فيهن الا لتكون هذه الدموعُ ذريعة من ذرائع الحياة الانسانية تَحفظ الرقَّة في مثل الرقة ، كما جعل البحار في الارض وسيلة من وسائل الحياة عليها [1] تحفظ الرُّوح والنشاط لها

ثم قلت كانت المرأة نصفَ الانسانية فصارت ربعَها قالت وكيف ؟ قلت ألا ترينها انقسمت في هذه المدنية الى قسمين متناقضين . الزوجةُ والـ . . . قالت حسبُك خذ في غير هذا فقد أَبْثَثتك ذاتَ نفسي ومايَنفعك ولا ينفعني أن تَنْقُضَ السورَ الذي أقمته حول حقيقتي فان كل قوى الكون عاجزة عن ارجاع ورقة واحدة انتثرت من زهرتها

ثم وثبت الى البِيانة [2] فصدحت عليها بلحن من

(١) لولا الماء الملح في هذه البحار على الارض لتعفن جوها (٢) هي (البيانو) وقد استعمل بعضهم في ترجمة هـذه الكلمة المزهر (بكسر الميم) وانما هو العود واستعمل بعضهم (المضراب) وانما هو مايضرب به كمضراب

ألحانها كان صرخةً من ضميرها صاعدةً الى عرش الله في صوت الانسانية الباكي

ثم ابتسمت وسلّمَتْ ، فانصرفتُ وكأني ما تكلمتُ ولا تكلمتْ ، وبقيتْ الأقدارُ مكانَها فما تأخّرَتْ ولا تقدّمتْ

« * »

ليس على الهاوية أرضٌ تغطيها فهل تغطّيها الفلسفة ؟ وقد خَسَفَ بها قلبُها في الارض (١) فهل تُسوّيها الحججُ والمعاذير؟ ولو كانت الحصباء فيها بين لؤلؤة وزمردة وياقوتة فهل من يدقّ عنقَهُ في الهاوية ليموت على أرض من الجوهر ؟ الهاوية في الطبيعة والساقطة في الانسانية ، كلتاهما أرض كالمرأة وامرأة كالأرض

وكذلك يخلق الطيبُ والخبيث « ليميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيِّب ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعض »

العود وجعلها بعضهم البيان (بكسر الباء) وليس فيها تماسك . والبيانة في رأينا أخفها وأصحها وافصحها

(١) خسف المكان اي ذهب في الارض

الفصل الخامس

﴿ المنافق ﴾

وهذا فلانٌ المنافق لا يرى فى الحب أكثرَ من باء تُنافق للحاء فهي تنزل عن تقدمها وتتأخر للمتأخر (١) كما ينحطُّ الرجل العاشق عن رُتبته ويقدّم على نفسه المرأة .

وعنده أن هذا برهانٌ طبيعى على أن الحب من غير نفاق هو حبٌّ من غير حب . فالنفاق هو الأصل وحسبُكَ به

أعرف هذا الرجل كالحائط المُبْهَم (٢) من أين جئته استغلَقَ عليك ورأيتَه رَدْماً واحداً فلا مَنْفَذ لك فيه إلا أن تكون قنبلةً آدميَّةً فى القوة والشر لأنه رجل المادة لا غيرها ؛ وهو كالمرأة الغادرة حبُّها الرجالَ كلمة على طَرَف لسانِهاَ ولسانُها عملٌ فى طريق منفعتها ؛ وهو كاللص حبُّه المالَ حاسةٌ فى يده ويدُه على ما يملك الناس

لونُه فى الحوادث ألوان ، ودينه في المنافع أديان ،

(١) تقع الباء في ترتيبها من أحرف الهجاء قبل الحاء (٢) الذي ليس فيه باب ولا نافذة

ونفسه من الناس حشَرَةٌ في إنسان ؛ واذا عرفتَه نظرتَ اليه كما ينظر المهمومُ لما جرَّ عليه الهمّ ، وإذا جهلته كان كالدواء المغشوش ذهب منه صوابُ العلاج ووقع فيه خطأُ السمّ

والمنافق هو سياسيُّ الحب والصداقة ؛ يضع المنفعةَ بين عينيه ثم تتوزّع على جوارحه كلُّ أساليب الكلام والحركة والعاطفة ، فلا مخرجَ لك من عُقدته إلا أن يَعقِدَ هو بأسلوب وتحلّ أنت بأُسلوب آخر . وترى صداقته تنتهي أكثر ماتنتهي الى مثل المقاطعة الحربية بين فراعِنَةِ السياسة وشياطينِها ؛ يرمي الداهيةُ منهم داهيةً آخر « بانذار نهائي » حاسمٍ يحمل الزلازل في كلماته وينصب للحساب ميزان الهوان والهلاك ، ثم يقول له في آخره : « وإني أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لكم احترامي الفائق » ! ...

ولن تجد شراً من هذا الاسلوب ينتحِله رجل إلا الاسلوبَ عينَه تنتحله امرأة . . . .

« * »

واللهِ الذي لا إله إلا هو ما رأيت كالمنافق رجلا الا ذلك الواقفَ يُدير وجهَهُ بين مَرَائي عن يمينه وشماله ومن ورائه وبين يديه ، فله في كل واحدة وجهٌ ويتعدد الرجل وهو شيء واحد

يخلق الله كلّ شيء ليكون شيئاً على الأَصل البيّن الذي خُلق عليه ، وللأَمر الميَسَّر الذي خُلق له ، وهو صريح واضح من جهتيه . فالأَشياء في الطبيعة هي ماظهرت به مشيئة الله ، تضر لأنها ضارة وتنفع لأنها نافعة . ولكن المنافق كأنما خفيت مشيئة الله فيه ، فهو من ناحية الانسانية مخلوق للنفع فضرّ ، ومن الجهة الحيوانية خُلق للضرّ فنفع ؛ وفي الرذيلة خلق تلويناً للرذيلة ، وعند نفسه خلق لانه خُلق . فأنت تعرفه من جهة على قدر ما تنكره من الأخرى ولو كانت الجهتان متقابلتين . فهو دائماً في نفاقه مختلف على السرّ والعلانية ، وعلى المذهَب والغاية ، وعلى المدخل والمخرج ، وعلى القول والعمل . ومختلفٌ حتى في كونه مختلفاً أو مستقيما

ولو مددتَ عينيك فى عينيه لرأيتَه يتخاوَصُ لك بإحداهما (١) كانك أبيض من شعاع الشمس وان كنتَ قد خرجت من مصنع التجليد الالهي فى جلد أسود ؛ إذ تأبى احدى عينيه على كل حالة إلا أن تُنافق ليظهر النفاق عليها . وهو من الذين يَمكرون السيئات (٢) لينتهوا منها الى حسناتهم ، ويُقاربُون الذمَّ ليخلصوا منه الى الحمد ، ويَسفُلون ليرتفعوا كما يبتدىء المقلاعُ دوْرَته من الأسفل ليرمى بحجره رميةً عالية ؛ ومهما انتحلوا من العلل واختلقوا من المعاذير ، وقولهم إن ذلك سياسة ومُخالَقَة (٣) وظرف وأدب من الذوق ؛ فهم لا يأتون كل ذلك الا لأن كل ذلك — علِمَ الله — هو النفاق

ويا ليت علم الأخلاق كعلم الجغرافيا ، إذن لكان له من وجوه المنافقين مصوَّرات ملونة ... ولاضطر العلماء أن يجمعوا من بعض السادة الكبراء مجاميعَ ويقيموا لهم

(١) يقال هو يخاوص ويتخاوص اذا غض من بصره شيئا وهو مع ذلك يحدق النظر او اذا نظر كما ينظر في عين الشمس
(٢) يتحرون الافعال السيئة ويقصدونها (٣) مجاراة كل انسان على اخلاقه

مَعارض . وتلك حقيقة لم يفطن لها علاّمةُ القرود الفيلسوف (دارون)، ولو هو فطن لها فكيف له بمجموعة أقبحُ ما فيها وجوهُ عظماء الناس... ؟

* * *

إن المنافقين من العامّة وأشباه العامة بجانب المنافقين من الخاصة وأشباه الخاصة كالشرر يتطاير عن الجمر، إن هو لَذَع لم يُحرِق وإن لم يلذع انطفأ ؛ فان خبثت منه شرارة جهنمية وتلذَّعَتْ ووقعت فيما تستوقده وردَّته حريقاً ، فما يجيء ذلك من كونها شرارة كبيرة بل من كونها جمرةً صغيرة . فالشأن إذن في هذا الجمر الذي يتلَظّى بمادته لان له مادةً استفادها من عناصر الأرض واجتمع منها غذاء النار فيه كما يُفيد أُولئك من المال والجاه والعلم والأدب وما اليها . وإن شر النفاق ما داخلَتْه أسبابُ الفضيلة وشر المنافقين قوم لم يستطيعوا أن يكونوا فضلاء بالحق فصاروا فضلاء بشيء جعلوه يشبه الحق

ولعلَّ هـذا النفاق هو أصغرُ رذائل الصغار وأكبر رذائل الكبار ، لأن للحاجة في أولئك شِرْعة ومِنْهاجاً وللضرورة أحكاماً وقانوناً . فالعاميُّ حين ينافق لكبير من العظماء ويتخضعُ له : إنما يوازن بين ما يعرفه في ذات نفسه من الصِّغار والضّعة وبين ما يتوهّم في صاحبه من الغَلَبة والقهر ، فهو يترقّى اليه ليدنوَ منه أو يترقى إلى خديعته[1] لينالَه أو يترقى الى كبريائه ليأمنه ، ثم هو في كل ذلك نازلٌ على حكم الحاجة والضرورة . ولو اعتبرتَ الرجلين على الحقيقة ووزنتهما في ميزان الأسباب لرأيتَ المنافقَ منهما من لم ينافق ... لأن ما يُخاض اليه إلا في الوحل لا سبيل اليه إلا من الوحل ، وذلك العظيم رجل بناه النفاق فجعل بابَ نفسه عند قدميه فإذا أردت مفتاح هذا الباب فاخفض رأسك ما من ذلك بُدّ . غير ان نفاق الكبار للكبار شيء أكبر من النفاق في نفسه وإنما سُمّيَ به تسامحاً وتجوُّزاً أو لأن اللغة تنافق هي أيضاً ... وإلا فنفاقهم إن كان

(١) يتسبب لما يخدعه من شيء الى شيء

صدقاً فأكبرُ فضيلته الكذب ، وإن كان حقيقةً فأعظم أدلتها الوهم ، وإن كان علماً فأكبر شرفه الجهل ، وهو التخَشُّع ينقلب ضَرْباً من العبادة ، وهو الوصف المزوَّرُ يَرْجِع نوعاً من الخلق الذى لم يخلقه الله . ثم هم طبقات ولكلٍّ نفاقُها ، ولا تدري أعلاها أسفلُها أم أسفلها الأَعلى ولكن الشر دائماً بالجلة وهم فى الجملة يتخلَّقون ويتصنَّعون بما نعرف وما لا نعرف . والكبراءُ هم موضعُ الفصل والوصل في بلاغة الاجتماع . وكل رأس منهم فهو كرأس الشارع لا بدَّ لك أن تلتوي أو تنحرفَ إذا أنت بلغتَه فإما أرسلك فى طريق خير أو شر ، واذا كان هذا فان كل واحد من كبار المنافقين ومنافقى الكبار هو على التحقيق نقطةُ انقلابٍ في أخلاق من حوله من الناس

« ✻ »

إن مادة حوادث التاريخ هم أولئك العظماء فانك لتجد الرجلَ العظيم في أخلاقه العاليـة وسجاياه الكريمة وفي تأثير هـذه الاخلاق والسَّجايا على الناس أشبهَ بالفتح

التاريخي المُبين وبالنصر القويّ العزيز ، ويكون الرجل انساناً ولكنه تاريخ ، وتجد الى جانبه المنافق العظيم . . . في أخلاقه السيئة وطباعه الاثيمة وفي تأثير هذه الأخلاق والطباع على الناس أشبهَ بتاريخ ضَرْبة من ضَرَبات الله [1] أو مَجْزَرَة من مَجازر الحروب ، ويكون إنسانا ولكنه على ذلك تاريخ

ولا أعلم في هذه الدنيا شيئاً لا يستطيع أن يوجد شيئاً آخر إذ الموجودات كلها مبنية على التحليل والتركيب ؛ وهذا النفاق في أصله مبني على الكذب السافل فاذا خرج منه شيء خرج منه الكذب العالي . . . فترى السياسي يبالغ في النفاق ويزعم أنه يتكلم بلسان المستقبل ؛ وينافق الأديب فيقال زُخْرُفٌ من القول ومبالغة في البلاغة ، ونفاق ذي السلطة تَواضُعٌ ، والنفاق من العالِم مَسلك من دقائق علم النفس ، ومن الغنيّ مالٌ يجذب مالاً ، ومن السفيه اللئيم شرٌّ يطلب خيراً ؛ فان هو كان من امرأةٍ قيل

(١) ضربات الله الاحداث الكبرى في الناس كالطوفان والاوبئة وغيرها

حبٌّ أو من طفل قيل تحبّب.   وكما تُردّ المركّبات كلها الى أجزائها المفردة فان نفاق أهل الأرض جميعاً يرجع إلى الطفـل الصغير كما يَنبثِق النهر العظيم على مدّ مَجراه من المنبع ، وينتهي إلى مصبّه وقد جمع من أقذار طريقه على طول ما يمتد .   فنفاق الطفل يكون فى أصله مكافأةً عن محبةِ أهله وذويه ثم يكبر فيصبح تودّداً اليهم ثم يعظم فينقلب حيلةً يحتالها العقل الصغير ليخضع بها العقلَ الكبير لِهِنَاته وهَيِّنـاته ، ثم لا تزال تُداخله بعد ذلك الأهواء والشهوات حتى يَنحصر نفاقاً فاذا هو ما هو

بَيْدَ أن ما يكون من نفس الطفـل يكون مَعفُوًّا عنه فى الأغلب كأنه ليس من نفس أو كان هؤلاء الأطفال حين يتواثبون ويقفزون فى اللعب واللهو، يقفزون كذلك من حدود الشرائع ... فللرجل من كل قاعدة حدٌّ محدود ليس وراءه اذا هو تخطاه وتعمّد مجاوزتَه الا حائط من السجن أو حائط من اللعنة أو حائط من جهنم ؛ ولكن الطفل يتخطى ذلك الحد وثباً ويكون قد وثب على السجن وجهنمَ بطبقاتها

السبع ولا يقع فى واحدة منها. فمهما نافق الصغير فهو ذكيّ خبيث ولكن نفاقه ينتهي بقبلة على خدية أو لطمة ...

لا الصغارُ فى منازل العمر من الأطفال ولا الصغار فى مَراتب العُمران من العامة يصلحون أن يقوم بهم النفاق لأَنهم جميعاً ينسحبون على أصل واحد في الطبيعة وهو صِغَرُ النفس وانصرافُها الى معاني الجسم دون معاني العقل، فلو أنك رأيتَ طفلا ينافق لطفل مثله أو شهدتَ عامياً من الناس يصانع رجلا من قياسه المنطقي .. لرأيت فى ذَيْنك نوعاً من الضحك الساكت وفى هذين ضرباً من الوَقار الذى يُضحَك منه . ان عَظَمة النفاق هي نفسها فى عظمة أهله الكبراء، وكل شيء قد يصلح موضعا للبحث والنظر والجدال الا ما يعتقد الرجل العظيم أنه عظيم به. وهنا موضعُ التأله الذي شُرِع من أجله سجود النفاق وركوعه وتهليله وتسبيحُه؛ فصغار العظماء كأنهم فى حاجة الى النفاق لان فيهم شيئا عاليا لا يظهر حدُّ علوّه إلا إذا قيس من نقطة سافلة . فاذا أنت عرضتَ لهم على

شرطهم فنافقتَ واستخذيتَ ونزلتَ عن كرامتك ، وأولك مع ذلك منافقا عند نفسك فقط ؛ واحتجتَ بعد كل هذا الى ضُروب أخرى من العَنَت الشاقّ على النفس حتى يعرفوا بعد أن يجهدك النفاقُ أنك منافق ؛ فلا تبلغ اليهم رذيلتك الا وقد صرت في جملتك مجموعةً من الرذائل

« * »

وإني لأحسب أن النفاق هو بقية ما وَقَرَ في النفوس الجاهلة من عهدها الأول عهدِ التعبّد لكل ما يضر أو يُتوهم فيه الضرر ، والتقديس لكل ما ينفع أو يُظن فيه النفع ؛ وتكون أرواح الأصنام والأوثان والعُجول والبقر والحشرات والعواصف والصواعق وغيرها مما كان يُخَص بالعبادة قديماً ، هي بأعيانها ما تتمثل فيه أرواحُ أولئك السادة الكبراء الذين يثقل ظلهم على الروح ثقلَ الضَّباب ، ويتراكم على القلب تراكُمَ السحاب ، ولا يرضون بابا من النفاق الا أن يُفضِيَ الى باب . ثم تكون أعمال المنافقين في دِهانهم ومصانعتهم وما تتروّح به أرواحُهم ، هي في ذاتها

بقايا تلك الرِّعْدة والفزع والضَّراعة وتمريغ الوجوه والتمسُّح وما إليها مما صَغُرَت به أَحلام لتكبر أوهام ، وكان عبادة أجسام لأرواح فصار عبادة أرواح لأجسام

والعظيم الذي تنافق له ولا يُنكِر عليك ولا يَردُّك ثم لا يرضاك ولا ترضيه الا على هـذا النحو ، هو في رأيي رجل خرافي من المعبودات الأُولى يحتاج الى نبيّ يمحوه . فان لم يكن نبيّ فرجلٌ حكيم يكشف للناس عن وجه الخرافة فيه ، فان لم يكن فذو عزيمة يصولُ به أو يستطيل عليه ، فان لم يكن فذو دين وتقوى يريه وجهَ السماء من دينه وزُهده ، فان لم يكن فذو علم يقنعه أنه كان ترابا وسيكون عظاما ورُفاتا . فان خلا قومه من كل أولئك فقد زين لهم (الشيطان) اعمالهم وقد رفع الله عنهم يدَه فلا يبالى في أيّ وجه هلكوا

« * »

أَمَا إنه لاينافق إلا الخبيثُ الذي يحاول أن يَقتحم النفوسَ وهي غافلة عن أبوابها ومَنافذها ، فنفاقُه من التلصص ؛ وإلا

الضعيف الذي يريد أن يقوى بضعفه فهو يحتال على أن يأخذ القويَّ من أضعف مكان فيه ، ونفاقه من المكر والخداع. وإلا الغاصبُ الذي يطمع أن يكون الشيء له وليس له ونفاقه من الظلم ؛ وإلا القويُّ متى أراد أن يسوق بقوته مَسَاقَ الضعف لينال بها من غير أن يؤذي ، فنفاقه من الكبرياء ؛ والخامسةُ أن روعة الحب في عاشق تنافق لروعة الحسن في معشوق ...

وكذلك لا يرضى عن النفاق ولا يقِرُّه إلا جاهل اكتفى من العلم قبل أن يعلم ماهو العلم ، أو مُستكبِر عَميت نفسُه عما حولها وعما فوقها ؛ أو غبِيٌّ يعرف عقله في وهمه ووهمَه في عقله ولا يعرف عقولَ الناس ؛ أو ذو سلطان دنَتْ مِحْنته وأظلَّتْ ملكَه النِّقمةُ فهي تسلك اليه سُبلا مختلفة منها فسادُ الناس ومنها النفاق . والخامسةُ أن يمتلىءَ نظر الجميلة رضا وسحراً حين يمتلىء فم المحب نفاقا في هواها ...

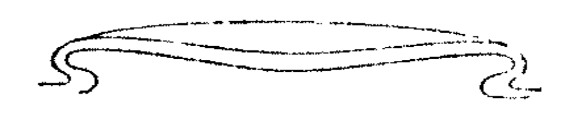
وأنت فكيف اعتبرتَ النفاق رأيته كذبا وخداعًا

ثم مكراً ومُصانَعةً في الحق ، فان هو فشا في طائفة من الناس ألفيتهم في الجملة كأنما تعاهدوا بينهم على أن لا يصدقوا ولا يَنصحوا ولا يأنَفُوا ولا يُقاربوا الحق . فاذا كثر هذا السّوادُ في شعب رأيته لا يحسنُ من الحياة الا الاسبابَ التي يقتل بها نفسه إن كان قويا ، ولا يهتدي لغير طرق الفقر إن كان غنيًا ، ولا ينفع الا أعداءه إن كان شعبا ذكيًّا ، ولا يعمل الا على السُّخْرة لغيره إن كان عاملا فَتِيًّا

« * »

وكل منافق وصاحبُه الذى ينافق له رجلان لا يَفهم أحدهما الآخر ؛ أو تكون بلادة الحسّ قد بلغت من أحدهما أن يتظاهر بأنه لا يفهم وبلغت الغِلْظة من صاحبه أن يظهر كأنه غير مفهوم . وكلاهما غطاءٌ مُكْفَأٌ على حقيقته ولكن الحقائق المغطّاة بأغطية الكذب موضوعةٌ أبداً على نار تتقد من عزائم المصلحين ونفوسِ الحكماء وقلوبِ الأحرار فلا تزال تغلي كلما طال بها العهد حتى تنفجر من أغطيتها فاذا الزُّورُ قد طاح به ما انكفأ

عليه وكان ذلك من سنَّة الله في إصلاح الناس ؛ وكان من سنة الله كذلك أن تجد الناس ينافقون جميعا الا مُصلِحاً أو حكيما أو رجلاً حرَّ النفس



الفصل السادس

﴿ الصغيران ﴾

والآن أرى السحاب رقيقاً مُهَلْهَلاً كأنه في سَرَقَةٍ من حرير أحمر (١) يشرق إشراق الروح في الطفل الصغير الذي كَفَلَتْهُ رحمة الله فتركته إذا ضحك استوْضَحَتْ له من الضحك معانٍ لا نهاية لها ولا يعرفها الناس فما ينفكّ من شيء يُضحكه أو يسرّه ؛ واذا بكى لم يجد للبكاء الا معنى واحداً من تلك المعاني الكثيرة التي يعرفها الناس فهم لا ينفكون من البكاء أو معانيه في هموم الحياة

تقوم الطفولة في روحها وعهدها وحوادثها على عقيدة واحدة هي أن كل ما كان فسيكون غيرُه ، وهي تعرف ذلك يقيناً جَزْماً لاشك فيه وحكماً فصلاً لا مَعْدِل عنه . فالصغار على أيّ أحوالهم هم كبار الناس في هذا المعنى

إنك لتعرف الرجلَ لا بأس بعقله ثم تراه فيما ينزل

(١) سرقة الحرير هي القطعة من النوع الجيد منه فتكون رقيقة مشرقة

به من الحوادث فاذا هو من النفرة والهم والقلق صورة كاملة من اضطراب فكره في حكمة ما ابتُلي به ، فاذا نظرت الى الطفل في مثل ذلك رأيته صورة أخرى من نفس حزينة راضية مستسلمة قد أقرَّتْ فيها رحمة الله بحكمة الله فالحزنُ فيها سببُ الهمّ ولكنه كذلك سببُ الأَمَل

« * »

جلستُ ليلةً مع صُحبة من الأُدباء في نَدِيٍّ[1] على عُنُق شارِع كذا بالقاهرة ، وكنا في الوقت الذي يُقبِل فيه الليل على أعماقه قبل أن ينتصف بمنزلة واحدة[2] تلك الساعة التي هي أوّل عهد الليل بالتنفس تحت الأجنحة السماوية[3] تنزل لِتَخْتِمَ على أعمال الأرض في يومها الغابر ثم تأخذُ في تهيئة الجمال السماوي البديع الذي سيُخْلَق منه الفجر

وكان الى جانبي أديب سِكّير نسميه « دِمْياطَ الحانة » . . . لأن فرعاً من نهر الخمر ينصبُّ فيه كما

(١) قهوة (٢) أي ساعة (٣) كناية عن الملائكة

ينصب فرع النيل عند (دمياط) . وقد عوَّدته الكأس أن يتخذَ الليلَ نهاراً والنهار ليلاً فما ينصرفُ الى بيته الا في فروع الصبح [1] ولا ينام إلا والعالم كله متيقظ . ويزعم أنه لا يهتدِى الى عقله إلا اذا أضاعه ساعةً أوساعتين [2] ؛ ولا يُحسن تصفيةَ الكلام وترقيقَ المعاني الا اذا نضَحَ جوفَه بماء الشعر [3] . وكان في تلك الساعة قد حطَّ عليه الساقى حتى انتهى في سماواته الوهمية الى الأُفق الزجاجي فعاد كلامُه رنيناً وطنْطَنَةً لا يفهمه إلا صاحب الحانة وحده ... فلما دَهته الداهيةُ من كَرْب الخمر تخطَّى حدَّ إنسانيته الى البهيمية السائمة ؛ وما كاد يرتفع الستارُ الانسانيْ عن مَسْرح أخلاقه حتى رأيتُنى في رواية عجيبة يمثلها أربعة أجتمعت أرواحها فى شخص واحد : سفيه ومعتوهٌ وأحمقْ وأديب ....

وجعلتُ أتأمل على يقين الخِبْرَة وأشهد على حَقّ النظر عجيبةَ هذا العقل الانساني الذى يسبح في الأفلاك

(١) أوائله وأعاليه (٢) كناية عن السكر (٣) كناية عن الخمر

ويتطوح من شاطيء المجهول الى شاطيء المعلوم بوثبةٍ أسرعَ من ضربة الجَناح ثم هو مع ذلك يغرق في زجاجة خمر ، وصرتُ أرى كيف يتحول النبوغُ العقلي في بعض ساعاته الى صناعة خسيسة هي صناعةُ الأديب نفسَهُ الشريفة بهيمةً من البهائم ، وعلمت عِلْمَ هؤلاء الادباء الذين يحسبون الخمر توحي اليهم وما في مِلْء الدّنّ منها مايعدل فائدة نقطة واحدة من قوة الارادة

لقد رأيتُ وعلمتُ وشهدتُ بعيني رأسي كيف يَبُوء هؤلاء بالمأْثَمَ والمَغْرَم جميعا [1] وتالله إنه لأَيْسَرُ على الباحث أن يجدَ السرابَ الذى يغترفُ منه الظمآنُ بكفيه ماءً زُلالاً من أن يعثر على الكأس التي يقتبس منها السكير فضيلةً أو فائدةً

ولو رجع الأمر اليَّ لما جعلتُ عقوبةَ الخمر الا تحطيمَ الزجاجات على رؤس شاربيها ؛ وهب أن رأس الأديب

(١) المأثم الاثم والذنب والمغرم ما يغرم عليه من المال ، قاتلهم الله يشترون بأموالهم « تذاكر الدخول الى جهنم » ....

السكير هو رأس أرسطو علماً وذكاءً ؛ فذلك أدعى لتحطيمه لأنه لن يكون في عربدته وسكره وانحطاطه وسقوط همته إلا رذيلةً يدافع العلم والذكاء عن وجودها فينصبها الشيطانُ مثلا للتقليد ويتخذها الأغرار والضعفاء قاعدةً للباطل المتَّبع يعملون على احتذائها ويتحولون عن فضيلتهم بحُجَّتها فيصبح هذا الرأس الواحد كالمطبعة متى حبَّرها الطابع نقلت ما فيها « بحروفه » إلى كل الصحف البيضاء التي تلامسها

«*»

وفي تلك الساعة كانت الأرض قد عَرِيَتْ إلا من أواخر الناس وطَوَارقِ الليل وبقيَّةٍ من يَقظَة النهار تحبو في الطرق ذاهبةً الى مَضَاجِعها . فبينَا أمدُّ عينيَّ وأُديرها في مُفْتَتَح الطريق ومُنْقَطَعِه إذ انتفضتُ انتفاضةَ الذُّعر ووثبتْ رَجَّة القلب بجسمي كله كما تثب اللَّسعةُ بملسوعها ؛ ذلك حين أبصرتُ الطفلين

صغيران ضلاَّ من أهلهما في هذا الليل يمشيان على

حَيْدِ الطريق [1] في ذلّة وانكسار ، وتحسب أقدامهما من البطء والتخاذل لا تمشي بل تتزحزح قليلاً قليلا فكأنهما واقفان أكبرهما طفلة تَعد عمرها على خمس أصابعها والآخر طفل يبلغ ثلاث سنوات ؛ ينحدران في أمواج الليل وقد نزل بهما من الهمّ في البحث عن بيتهما ما ينزل مثله بمن تُطوّحُ به الأقدار إذا ركب البحرَ المظلم ليكشف عن أرض جديدة

تَتَبيَّن الخوفَ في عيونهما الصغيرة وتراه يفيض منها على ماحولهما حتى ليحسب كلاهما أن المنازل عن يمينه وشماله أطفالٌ مذعورة ويتلفتان كما تتلفتُ الشاةُ الضالة من قطيعها لا يتحرك في دمها بالغريزة الا خوفُ الذئب ويتَسَحَّبان معاً وراء الأشعة المنبثة في الطرق كأن أضواء

(١) هو التلتوار أي جانب الطريق . عن ابن سيده : « حيد الجبل شاخص يخرج منه وجبل ذو حيود وأحياد اذا كانت له حروف ناتئة في أعراضه » . قلنا وهذه صفة التلتوار الا أنه غلط في جانب الطريق لا في جانب الجبل . وبعضهم يترجم التلتوار بالافريز وهي كلمة مشتركة أكثر ما تستعمل في النقوش البارزة . وبعضهم يستعمل (الطوار) بفتح الطاء ولكنه المدار ما يمتد معها من فنائها . وبعضهم يستعمل البرزوق وهي ثقيلة نافرة . ولا أفصح وأخف من الحيد . تقول حيد الطريق ، وللشارع حيدان ، وحيود الطرق وأحيادها وهلم جرا

المصابيح هي طريق قلبَيهما الصغيرين .

منقطعان في ظلام الليل وليس على الأرض أهنأ من ليل الطفل النائم فهل يكون فيها أشقى من ليل الطفل الضائع ؟ نامت أحلامهما واستيقظت أعينُهما للحقائق المظلمة العظيمة ، وضاعا من البيت ويحسبان أن البيت هو الضائع منهما . طفلان في وزن مثقالين من الإنسانية ولكنهما يحملان وزنَ قناطيرَ من الرُّعب

يا من لا إله الا هو . من سواك لهاتين النملتين في جُنْح هذا الليل الذي يشبه نقطةً من غضبك . لقد أخرجتَهما في هذا الضَّياع مخرجَ أصغر موعظة للعين تنبِّهُ اكبرَ حقيقة في القلب ، وعرضتَ منهما اللانسانية صورةً لو وُفِّق مخلوق عبقريٌّ فرسمها لجذب اليها كلَّ أحزان النفس

صورة الحب يمشي مُتسانِداً الى صدر الرحمة في طريق المصادفة المجهول من أوله الى آخره ، وعليهما ذلُّ اليتمِ من الأهل ، ومَسْكَنَةُ الضياع بين الناس ، وظلامُ الطبيعة وكآبتُها

رأيت الطفلة وقد تَذبّبت فيها لاخيها الصغير غريزة أمٍّ كاملة ، فهي تشدّ على يده بيديها معًا كأنها مذ علمت أنها ضائعة تحاول أن يطمئن أخوها الى أنه معها ولن يضيع وإنه معها (١). فيالرحمة الله . وقد أسندت مَنْكِبَه الى صدرها وهي تمشي فلا أدرى إن كان ذلك لتحمل عنه بعض تعبه فلا يتساقط ؛ أو ليكون بها أكبرَ من جسمه الضئيل فلا يخاف . أو لأنها حين لم تستطع أن تُفهمه ما في قلبها بلغة اللسان أفاضته على جسمه بلغة اللمس ، أو لا هذا ولا ذاك إنما هي تستمدّ من رُجولته الصغيرة حماية لأنوثتها بوحي الطبيعة التي رسخت فيها

أما الطفل فمُستَذِلٌّ خاشع لو تُرجمت نظراته لكانت هذه عبارتها : اللهمَّ إن هذا العمر يومٌ بعد يوم فأنقذنا من بلاء يومنا . ولما وقفا بإزائنا كان هذا الصغير يقلّب في وجوه الناس نظراتٍ يتيمةً تَرتدّ على قلبه آلامًا لا رحمةَ فيها إذ يشهدُ وجوها كثيرة ليس لها ذلك الشكلُ

(١) حالة أنه معها وهو تركيب من أبدع الكلام

الانسانيّ المحبوب الذى لا يعرفه الطفلُ من كل خَلق الله إلا في اثنين : أمّه وأبيه

وما أسرعَ ما تناهض الناسُ وأطافوا بهما، وما أسرعَ ما لاذَ المسكين بأخته واستمسك بها كأن وسائلَ الرحمة تُخيف كما تخفيف أسلحة « الجرّاح(١) » أو كأن الاصل في هذا الانسان هو العُدْوان على أخيه وظلمُه واجتياحه فكل حركة إنسانية مشكوكٌ فيها حتى يقع أثرُها لأن الانسان نفسَه يِستار منسَدِلٌ على نيته، وهذه النية آلة للأَطماع فلا تزال في يد الكذب دائمًا لا يدعها للصدق إلا فيما لا « ينفع » ....

وكان الطفلُ المسكين في جملة النظر اليه خَلْقًا من الحب المؤلم الذى يُلهِبُ الدم . يرسل من عينيه الدّعجاوَيْنِ سحرَ المذَلّةِ الفاتنة . تلك المذلة التى أعرفها أقوى ما في الحب إذا تذللت الحبيبةُ في نظرة ضارِعة توسلها لحبها

(١) الجراح كلمة محدثة وصوابها الجرائحي في اللغة القديمة ولكن الاولى أفصح ولا بأس بها لغة

المفتون فلا تُبقي في رأسه رأيا ولا في قلبه نية ، وتذلُّ له ليَذلّ هو لا غير كأن أحبَّ العزّ في أحبّ الذل

ونظر إليّ أنا أولَ رَمْقةٍ فذكرت أَطفالي فتزَلْزَلَ قلبي وأحسست أن دمي استحال الى بارود وقع فيه الشرر

وهؤلاء الاطفال الصغار هم إنسانية على حِدَة ، فكل أب هو أبو هذه الانسانية كلها ؛ ولن يُطيق من كان له طفل أن يرى صغيراً ضائعاً في الطريق يستهدي الناس الى أهله ويبكي عليهم ، أو طفلاً جائعاً يعرض على الناس وَجهَهُ المنكسرَ ويستعطفهم بصوته المريض أن يُطعموه ؛ أو طفلا يتيما قد ثِكلَ أهلَه وضاق بقسوة أوليائه فانطرح في ناحية يبكي ويتفجعُ ويسأل من يعرفون الموت : أين أبي ، أين أمي

هؤلاء جميعاً ليس بينهم وبين قلوب الآباء والأمهات حِجاب اذ ليس فيهم من الناس الا اضطرارُهم الى الناس ؛ فهم الانسانية الرضيعة التي خُلق من أجلها القلبُ الانساني في شكل ثَدي

« * »

واطمأن ذلك الطفل الى صدر أخته ومال برأسه عليها ثم أطلق عينيه فينا جميعاً فما حسبته أراد ألا أن يَخْبَأَ في قلبها أفكاره الصغيرة ثم ينظر الى هؤلاء الناس نظراتٍ مجردةً بَلْهاءَ كما ينظرون هم اليه ، اذ لم ير فيهم من فتح له ذراعيه ولا من حمله ولا من تَحَنَّى عليه ولا من ضحك له ولا من أعطاه شيئاً يأكله

ألا إنما الناس صُوَرُ الفكر أو صوُرُ القلب : فمن لم نر فيه صورةً من أفكارنا التي نلتمسُها أو من أهوائنا التي نحبها فذلك ليس منا ولسنا منه وإن سُمي أخاً في لغة النفاق وإن دُعِي حبيباً في لغة المجاملة ؛ بل هو مخلوق ليكون النَّموذجَ الذي نتعلم عليه البغض إن كان متصلاً بنا ، أو التسامحَ إن كان بعيداً عنا ولم تتصل بنا ولا أخبارُه ...

وكم بين الناس من اسمٍ تعرفه على صاحبه كهذا النور الأحمر الذي يضعونه في الطرق فيضيئونه من الليل فوق الحفرة .... ليُنْذِرِ الناسَ ما وراءه ويقولَ لهم بصوت

النور : هٰهنا ما ينبغي أن تحذروه ، هٰهنا حفرة ......

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فهم منقسمون حين يولدون أسباطاً أسباطاً باختلاف الدم فى كل أُسْرة ، وهم متفرقون حين ينشأون أفواجاً أفواجاً باختلاف الصحبة فى كل فِئة ، وهم مُتبَاينون حين يتدفَّعون أحزاباً أحزاباً باختلاف الهوى فى كل طائفة ، وهم متناكرون حين يتنازعون أُمماً أمماً باختلاف المنفعة فى كل أمة . فتلك أربعةُ وجوه تلبسها الانسانية فيهم ؛ ومن ثَمَّ قُضِيَ على هذه الانسانية المسكينة في الأرض أن تكون ثلاثةُ أرباعها عداوةً كالأرض نفسها ثلاثة أرباعها ماءٌ مِلح لا يُساغ ولا يُشرب وإنما منفعته للكون كله في الجملة . ولعل شيخاً من الشيوخ لو تدبَّر حياته وأحصى أقدارَها وميّز أنواع حوادثها وما أتى عليه فيها من أولها الى آخرها لرأى ثلاثة أرباعها ملحاً أيضا ...

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فليس يَأْتي للوالدين أن يربُّوا من أولادهم ناسا بل أهواءً ومطامعَ

يناقض بعضُها بعضا . مطامعُ تتبع أسبابها وأهواء ترجع إلى غرائزها فلو أن أهل هذه الأرض بلغوا بما لا نعلم من الوسائل أن ينظموا ظاهرَ دنياهم حتى يكون سواءً لا يخالف شيء منه على شيء، لبقيَ الانتقاضُ والاختلال في باطن الانسان حتى لكأن بعض الدم يُخلق غالباً على بعض الدم . وإنه لا شيء في هذه الحياة إلا وقد خُلق معه ضده فاذا استقامت الأمور فامن تكون الأضداد لَعَمْرِي ؟

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فدنيا كل إنسان في شيئين : ما يَنْزِعُ إليه بفكره وما يميل اليه بقلبه، والانسان من كل إنسان أحد اثنين . من تُرجَى به المنفعة ومن تكون فيه المحبة . والانسانية من كل إنسان في منزلتين : أدنى الحب وتلك منزلة الصداقة ، وأعلى الصداقة وهي منزلة الحب . فأما ما وراء ذلك فصحراءُ الانسانية الكبرى المقفرةُ من قلب الشخص وفكره .

ولو لا الأديان لخربت الدنيا فان هذه الاديان قد عمَرَت هذه الصحراء بعنصرين جليلين أنبتا فيها القلبَ والفكر وهما

خوفُ الله فى خلقه ومحبةُ الله فيهم. فحيثُ وُجِد هذا الخوفُ وهذه المحبة وُجدت الانسانية ، وعلى ذلك فالانسانية العامة الحقيقية هى الايمن ، والانسان العامُّ الصحيح هو المؤمن ، والسلام العامُّ الكامل هو الله جلَّ جلالُه

ولكن يالشقاء الانسان التَّعِس . إنَّ أعجب ما فى الشر أن اختلاف الناس في فهم هذه الثلاثة هو أصل الشر

«*»

وسألوا الطفلين أسئلة سياسية . . ما وطنهما وما جنسُهما ؟ أى من أى شارعٍ ومن أى والد . ألا ضلَّ ضلالُكم أيها الناس ، فلو أنهما يعرفان من أى شارع ومن أي والد لما كان منهما ما ترون . على أن الطفلة اَختلجتْ فى بعض كلمات تشبه اضطرابَ قلبها ، وكان الصوابُ كله ماثلا لعينيها مجتمعاً فى ذهنها ، فالبيت والشارع والأَبُ والأم كل ذلك واضح فى خيالها ؛ ولكن الذي استَبهم عليها هو تحديدُ نسبته الى هذا الوجود الذي تراه كلَّه بيوتاً وشوارع

ورجالاً ونساءً . وإنما تحديد الشيء هو تعبير الطبيعة عنه وإنما تعيينُ نسبته من غيره هو تعبير الشيء نفسِه عن خصائصه ، فاذا أنت عرفتَ نسبتك من سواك وحصرت هذه النسبةَ في حدودها وأسوارها فقد أمنتَ الخطأَ في سعادة نفسك وأصبحت بتلك المعرفة أسعد إنسان .

ولكن مَن لك بهذه المعرفة وبهذا التحديد وقلوبُ الناس كافةً كأمواج البحر في البحر ، تظهر كل واحدة قائمةً بنفسها في رأي العين وهي راجعة في جميعها الى أصل واحد هو هذا السَّيال المتحرك الذي يتضرب بعضُه في بعض ليوجد الأمواج ويفنيَها

ما أراني أعرف بعد طول الفكر سبباً للشقاء الانساني يجمع كلَّ ضُرو به إلا سبباً واحداً ، هو أننا مُعَدُّون لكل الحالات المختلفة التي تَطرأ على الحياة بقلب من نوع واحد ، فاذا استطعنا أن نجعل ظواهرنا موضعَ الترتيب فان بواطننا أبداً موضع الاختلاط والألم والنكد

« * »

ولما رأيتُ حيرة الطفلين ضممتهما إليّ وألهيتهما عن كآبة القلب بسرور البطن فدفنتُ كل آلامهما في بعض قطع من الحلواء، فطعِما واستضحكا وتطعّما الحياةَ جديدة آمنة

والطفل لا يعرف مستقبلا ولا ماضيا وما هو إلا حاضرُه، فان عَييتَ بأمره فأوْجِدْه ما يلهو به فهذه هي سعادة الطفولة. ولقد سرهما من الأديب السكير الذي كان الى جانبي أضعافُ ما سرهما من الحلواء بل هو كان زيادةً في حلاوتها فحسباه يتعمد بسطهما وإيناسهما بحركاته وبكلامه الذي يطنُّ في السموات الزجاجية؛ فكانا يضحكان منه وكلما تكلم أو أشار أو تحرك أو أنكر عليهما استخرج بذلك منهما مثل تغريد العصافير؛ فكانت كل الفائدة من سقوطه وضياع عقله أنه أضحك طفلين ....

وقدّرت في نفسي أنهما من هذا الشارع الذي نحن فيه أو من فَصيلته في الطرق التي تخالطه أو تقاربه، وقلت إن أهلهما على أثرهما فجعلت أستأْنِي وأنتظر. وبينما نحن على ذلك إذ ارتفع سواد مقبل كأنه روح ليلة مظلمة تَغشّى

الطريقَ، فتبينتُ فاذا امرأة تهفو كذات الجناحين وكأنها تنساق بقوة تحترق في داخلها، ثم أخذتنا عيناها فاذا هى أمُ الطفلين تبدو من لهفتها واستطارتها لولديها كأنما تحاول أن تختطفهما من بعيد بقوة قلبها وما عرفت أنها هي إلا بأن روحها كانت منتشرة على وجهها ملموسةً في نظراتها الى الصغيرين؛ وكانت لها هيأةٌ هيأةَ أم (١) وُضعت الجنةُ تحت قدميها فترى فى وجهها معانيَ ليست من هذا العالم وليست من الجنة نفسها إذ تزيد على كل مسرات الدنيا هَناءَةَ الاطمئنان السعيد المفاجيء الذى لا يكون في الحياة إلا هُنَيْهة ثم ينقطع، وتزيد على ما هناك هذه اللهفةَ اللذيذة التي لا توجد إلا هنا على الارض حينما تَفْجأ السعادةُ بعد شقاء لا يُحتمل. إن من لم يرَ أماً أشفى طفلها على الموت فى حادثة أخذته بغتةً ثم نهض سليما معافىً، أو ضلَّ عنها مدة حتى يَئِستْ منه ثم اهتدت إليه، لا يكون قد رأى

(١) هذا من تراكيبهم البليغة وهو تكرار يستعمل فى اثارة النفس وتنبيهها فيقع منها اي موقع. والكلمة الثانية تنصب اذا أريد بها الحدوث

شيئاً من سعادة الانسانية العالية النادرة التي لا تكون إلا في الأمهات خاصة ولا يشهدها الناس الا في ساعة حرجة تلمس فيها يدُ الله قلبَ الام

« * »

وهَلَّ الطفلان (١) لما أبصرا أمهما ونفضا أيديَهما نفضَ الأجنحة ثم أكبَّت هي عليهما بجسمها ومدامعها وقبُلاتها ، والتحَما بها التحامَ الجزء بكلِّه واشتبكت الأذرعُ في الأذرع حتى لا تفرق بين ثلاثتهم في معاني الحب الا بالكبر والصغر ، ورجعتْ معهما طفلةً كأن تاريخها ابتدأ جديداً في ساعة من الساعات الفاصلة التي يتحول عندها التاريخ

واذا كانت القلوب بين إصبَعَين من أصابع الرحمن يقلِّبها فلقد كانت هذه القلوب الثلاثة في تلك اللحظة تنطق وجوهُها بانها في يد الله يهزُّها هزًّا. ولكم وددتُ لو أستطيع أن أخلط بها قلبي المسكين في لمسةٍ واحدة

(١) صاحا صيحة الفرح

ليشعر ولو لحظةً في هذه الحياة أنه سما بروحه فوق العالم كله

لو أصابك الهمُّ لحبيبك إذ تراه مهموما متألماً لذقتَ أحلى أنواع الآلام السعيدة ، فكيف بك لو تبدّل همّه بغتةً فأقبلت عليك قبلاته وضحكاته تزحزح عن قلبك ناموس الكآبة ! الحبُّ ما الحبّ إلا لهفةٌ تهدر هديرَها في الدم ، وما خلقت لهفة الحب أولَ ما خلقت الا في قلب الأم على طفلها ترأمه وتحنو عليه ولن يحفظها للعالم إلا هذا القلبُ نفسه . ولقد يكون عمرُ الطفل يومين ولكن لهفة أمه عليه وحفظها إياه حفظ عينيها تجعل له من الحب عمراً ممتطا ولا يقاومُ به الأقدار العادية عليه في مسارحها ؛

ولولا ذلك لحطمته هذه الأقدار كما تحطم كل طفل أهمله ذوو عنايته (١) . فلهفة الام على طفلها كأنها قوة سنينَ عدداً في جسم هذا الطفل . ومن ثمَّ لم يكن الحب الصحيح في أسمى مظاهره الا حبّ المرأة لبني بطنها (٢) : وانما يسمى غرامُ العاشقين حبًّا لأن في العاشق دائما

(١) أهمله والذين يعنون بأمره (٢) أولادها

مع حبيبته أكبرَ معانى الطفولة وفى العاشقة دائمًا مع حبيبها أصغر معانى الأمومة

وما كان هذا الغرام ليُسمّى حبًّا لولا ذلك ولولا أن في اللغات لصوصًا من الألفاظ تَسرق معاني غيرها....

حب الأُم في التسمية كالشجرة تُغرس من عود ضعيف ثم لا تزال بها الفصول وآثارُها ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرةً بعد أن تُفني عِدادَ أوراقها ليالِيَ وأيامًا . وحب العاشقين كالثمرة ما أسرعَ ماتنبت وما أسرع ما تنضج وما أسرع ما تُقطف؛ ولكنها تُنسِى الشفاه التي تذوقها ذلك التاريخَ الطويل من عمل الارض والشمس والماء في الشجرة القائمة

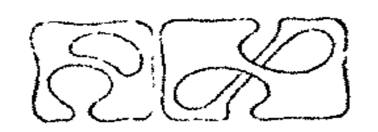
لا لذة في الشجرة ولكنها مع ذلك هى الباقيـة وهي المُنتجة . ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هي الحلوةُ وهي اللذيذة وهي المنفردة باسمها

وهكذا الرجل أغواه الشيطان في السماء بثمرة فنسي الله حينا، ويُغويه الحب فى الأرض بثمرة اخرى

فينسى معها الام أحيانا

« * »

وذهبت المرأة بالصغيرين بعد أن شهدتُ منها ومنهما مواقعَ رحمة الله في القُوى المسكينة التي لم تجنها المسكنة الا من كونها أطهر القوى وألطفَها . وانفجر قلبي آلاماً وسروراً ورحمة في ساعة واحدة ثم كاد ينفجر آخر الأمر من الضحك .. حين أراد الطفلان أخذَ الأديب السكير معهما لأنه مضحك ....



الفصل السابع

« الشيخ علي »

وكأنما أنظر الآن فى قلب رجل لا فى وجهه إذ تهلّل على السحاب وجهُ « الشيخ علي » شيخِ المساكين (١).

أراه كما كنتُ أعرفه ضاحكاً غير الضحِك الذى يَلْبَس وجوهَ الناس فلا يضحك لشيء إنساني بل ماهو الا أن تراه قد تهلّل فرفع وجهه الى السماء وأرسل من فمه مثلَ نور التّسبيح في إشراقٍ جميل، حتى لقد كان يُخَيَّل اليَّ حين أُبصره على تلك الهيئة أنه لا يضحك ولكن قلبه يرتعشُ بعضلاتِ وجهه

لو أراد الله بالناس خيرا لوضع في أبصارهم أشعةً تَنْبَثّ في أطواءِ القلوب فتعرف ألوانَ العواطف وتُميِّزها لوناً

(١) وضعنا كتاب المساكين على لسان هذا الرجل ليتعزى به أهل البؤس وأحلاف الهموم، وقد أوردنا لوصفه بابا في ذلك الكتاب وحسبه اكثر القراء رجلا مخترعا كرجال الروايات ولكنه كان رجلا أشبه فى حياته برواية . وقد توفى فى سنة ١٩١٩ وظهرت بموته كرامات صحيحة شهدها الناس بأعينهم ولم ينعه أحد ولا كان احد يحفل به ومع ذلك كانت له جنازة لم يعرف مثلها فى بلده وأحوازها كأنما خرجت الحياة نفسها تشيع أصغر حي لتجعله أكبر ميت

من لون، ولكنه جعل الوجه غطاءً على معاني القلب ثم سلّط الفكر على معاني الوجه ومعارفه يصوّر فيها ما شاء مما له أصلٌ في الحِسّ وما لا أصلَ له حتى ليختبئ الإنسان عن الإنسان وهو مكشوف لعينيه .... وإذا كان الله سبحانه قد أوجد الخيرَ والشر صريحين فقد أوجد الإنسانَ ثالثاً لهما وهو تلبيسُ أحدهما بالآخر، وأراد الخالق ذلك ويسّره للإنسان فجعل فيه آلةً واحدة للصدق وهي القلب وآلتين للكذب: وجهَهُ ولسانَه

« ✲ »

كان « الشيخ علي » يُشبه إنسانيةً قائمةً بغير إنسانها على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته (١) وكانت الدنيا كأنما نسيتْ أنه فيها فتركت له روحَه صافية منطلقة تتطعّمُ الحياةَ غيرَ مُستقِرّة في شيء كما يتطعّمُ النسيمُ رائحتَه من ورق الزهر فهو يَتسحّبُ عليه ولا يستقر فيه ولو أنه ورق الزهر

(١) أكثر من ترى من الناس لهم حظوظ الانسان ولا انسانية فيهم والشيخ علي لم يكن له من حظ الانسان الا الجرم والقمة وعضة العيش

وما زالت روحُ هذا الرجل مني منذ عرفتهُ كأنها نَضَّاحَةُ عِطر [١] تَمُجُّ رَشَاشَهَا على حياتي رَوْحاً وعَبِيرا ونَدًى ؛ وكان الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي يملأ ما حوله ابتساماً وطفولةً ورقّة ، ولو أن أحدا خُلق من عيني الطفل الضاحكتين لكان هو (الشيخ علي) رحمه الله ؛ على أنه كان رجلاً من سُوسِهِ القوةُ معصوباً مُتَكَدِّساً [٢] يملأ جلدَه كأنه جِذْلٌ من أجذال الشجر [٣]

((*))

وانقبضت نفسي انقباضةً شديدة إذ تغير الرجل في خيالي فنظر اليّ نظرة ينقدح منها شررُ الغيظ ، فلو أبصرت عيناك طائراً ضعيفاً أراعَه نسرٌ فاستطردَه في نواحي الجو هكذا وهكذا [٤] ثم أهوى له بمخالبه ثم سدّد اليه نظرةً

(١) رشاشة العطر وهي ترجمة لكلمة Vaporisateur ويسميها العامة « بخيخة العطر »

(٢) المكدس الممتلىء عضلا والمعصوب الشديد طي الجسم بعضه على بعض ومن سوسه أي من أصله وطينته أو كما يقول العامة (من عوده)

(٣) ما عظم من أصولها

(٤) اي هنا وهناك

غَرَزت هذه المخالبَ وانفجرت بآلام لحمه ودمه ، فاعلم ان تلك هي كـنظرة الشيخ الحيّ ولقد تبعثرتْ لهـا شياطينُ نفسي فانطلقت يحاول كل شـيطان منها مهْرَباً وكانت تُوسوِس في صدري أن أستمدّ من روح الشيخ قولةً في الحب ، هذا الحب الذي مهما اعتبرته لم تجده إلا كإحياء الخيالات بقتل حقائقها . ثم ما لبث أن استضحك وأطلق لى نفسي وجاشت عيناه بنظراتهما الحكيمة فقلت ويحكِ يانفس ، إن عين الشيخ ترى من الجمال غير ما نرى ثم تعلم علمَها ممـا نظرتْ فيه ثم تُقدِّره على حساب ما تعلم منه فما يُدريك لعلّ هذا الرجل الروحاني لا يرى إلا ما وراء تلك البَشَرَة الجميلة التي تكسو وجوهَ النساء الجميـلات كما نُبصر نحن من وجوه الموتى وقد تأكلَ جلدُها وتناثر لحمها وبرزت عَظْماً كسائر العظم من كل حيوان ، فلا موضعُ قُبلة ولا سحر نظرة ولا إشراقُ بَسْمة وما هو إلا تركيب من العظم صنع هذه الصنعةَ تيسيراً لمـا خُلق له . ولعله يانفسُ لو حشر الله لعينيك

أجملَ الجميلات في صَعيد واحد وحشر معهن إناثَ البهائم صِنفاً صنفاً ثم نزع عن تلك الوجوه كلها ذلك الطّرازَ من الجلد وما وراءه من اللحم مُزْعةً بعد مزعة[1] حتى لا يبقى إلا الوضعُ في بناء العظام وهندستها، فما يدريك لعلّ أجمل الجمال عندنا هنا لا يكون حينئذٍ إلا أقبَح القبح هناك ؟ .
أفَمِن جلدة على وجه امرأة يجيء الشعر والجنون معاً ويجتمعان في هذا الخيال الذي يسمى الحب ويستنزلان معانيَ التقديس من أعلى السموات الى عين تَلْحظُ لحظةً وشفَةٍ تبسم بسمة ؟

إنه القلم الالهيّ المبدع الحكيم هو الذى صوّر ولوّن وافتَنَّ ما شاء ؛ فان رُزقت امرأة جلدةً جميلة مُشرقةً كأنما تجري فيها الشمسُ، وأُلبسَتْ أخرى جلدةً قبيحةً سَفْعاء[2] تجول فيها رهبةُ الظلمة ؛ فكلتاهما صورة من صنع الله وكلتاهما تُظهر لوناً من ألوان الحكمة وكلتاهما جاءت لمعنًى وكلتاهما بَعدُ غِشاء زائل على وضع ثابت لا يختلف في هذه

(١) هي القطعة من اللحم (٢) السفع سواد مشرب بحمرة والمراد به هنا فساد لون الوجه وقبحه وبشاعته

ولا في تلك ؛ وضع الحقيقة الجسمية التى تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة. والحياة لا تعرف البشَرةَ الا غطاءً على ما وراءها اسودً أوابيض، وكان من لون المرمر أومن هيئة الطين

ولو أن كل وجه في نساء الدنيا خُلق دميما نافراً على أبشع ما نتصوره من القبح لكان كلُّ نساء الدنيا جميلاتٍ إذ يألف الطبع الانساني تلك الصورة الواحدة ويتقرّر بها الذوقُ في الجمال وتستمرُّ بها العادة فلا يستبين وجه من وجه آخر في صفة ولا يخالف مذهبٌ مذهباً في حالة

ولكن هذا الانسان كُتب عليه الشقاء تُخلق وخُلق معه ما يُطغيه وما يَستفِزّه وما يُخرجه عن طوْقه ؛ كما خُلق له ما يُزهّده وما يطمئن به وما يحصره في انسانيته . فالجميلات والقبيحات كلهن سواء في أنهن نساء هذه الانسانية لا تقصّر في ذلك واحدة عن واحدة وإنما يتفاوتن في أسباب الشقاء الأنساني الذي يَبتلي الرجل بالمرأة ويمتحن المرأةَ بالرجل ولو سما عقل الرجل الى

الغاية العُليا من كماله لرأى المرأة الجميلة الفاتنـةَ في نصف جمال المرأة القبيحة ، ولبانت الواحدةُ عنده من الأخرى بأن الدميمة مهيأة في نفسها لمعالى الأخلاق والجميلة مهيأة لسفْسَافِها (١) ، ولرأى مع هذه من بعض طباعها ونزَعَاتها شراً مما تقدَّم بها من جمـال وجهها ، ومع تلك من اكثر طباعها وصفاتها خيراً مما قصّر بها من حسن صورتها

بَيْدَ أن من شقوة الطبع الانساني أنه سخط القبحَ فأحاله فساداً وعَبَدَ الجمال فأحاله فساداً من نوع آخر إذ كان في نفرته وحبه لا يعتبر المنافع والحقائق ولكن الأهواء والشهوات ، والمنفعة والحقيقـة كلتاهما لا تكون إلا في قيودها أما الأهواء والشهوات فهي دائمـاً لا تقع إلا مُتخَطِّيةً حدودَ العقل إما الى النقص وإما الى الزيادة ولا تُغرَى بشيء الا أوقعت به السوء إذ لا يستوِى في القَصْد ماخرج عن الحقيقة ـ وما هو مقيَّد بالحقيقة

((*))

(١) السفساف الدنيء وأصله مايتطاير من الغبار اذا أثير ومن الدقيق اذا نخل لانه أهونهما ولا فائدة منه

كان هذا وحيَ (الشيخ علي) في نفسي غير أني رددتُه عليه وأزَّني شيطانُ الحب مرة أخرى فقلت : أَفترى الشوهاءَ على ما بها ممارَكع للدهر وسَجَدَ[١] ثم تلك المرأة التي سمجَ تركيبُها فتحامتْها العيون، ثم الأخرى التي قمِعَتْ في بيتها تختبئ فيه من القبح[٢] فصارت سرّاً في صدر الحيطان ثم تلك التي تلوح في النساء كالسطر المضروب عليه أفسده الخطأ، ثم المهزولة التي أدبر جسمُها[٣] وتقبّضت أعضاؤها وأصبحت جلدةً تمشي وتتكلم. أفترى هؤلاء أو إحداهن كتلك الغانية المتشكلة في ألوان الثياب كأنما تلبس بدَنها الجميل بدناً معنوياً يدلّ على معانيه، أو الأخرى التي تظهر في جمالها الفتّان عاطلةً من كل حِلْيَة ومع ذلك ترفّ على حسنها روحُ الياقوت والألماس واللؤلؤ مما عليها من البريق والشعاع، أو المطويّة المشوقة المسترسِلَة كأنها في

(١) كناية عن أسباب فقرها من الجمال وسقوطها فيه ويقال ركع للدهر وسجد اذا كان فقيراً ساقطاً ليس وراءه ما هو من الذل (٢) هي القممة (بوزن ملكة) وجمعها قمات (كملكات) من تستتر لما ابتليت به من قبح الصورة
(٣) كاد يفنيها الهزال وتسمى الممصوصة

قَوامها ووجهها غصنُ الجمال وزهرته ، أو الحسناء اللّعُوب المَزّاحة كأنما اجتمعت طباعُها من نور القمر أطَلَّ في ليلة من ليالي الربيع يُداعِبُ أوراق الورد النائمة ، أو ... أو تلك ياشيخ علي ...؟

(قال الشيخ على) فياويلك ؛ إني والله بك مِن رجل لخبير [١] أفي أجل واحدة ...؟ أمَا إنه لعل الذى جملها حقًّا عندك هو الذى يجعلها باطلاً عند سواك ولعله ماحسَّنها في عينك إلا أن طبعا من الجِدّ فيك استملح طبعاً من الهزل فيها كما ترى معنى مَكْمُودًا في إنسان يَسترْوِحُ الى نقيضه في انسان آخر . ولعل مِن أمتع اللذات وأبهجها القلب المهموم أن يتصوّر في هذه من يعرفه طروباً فَرِحاً وان كان كلا الرجلين لا يَسكُن لِعشْرة الآخر لو تعاشرا واختلطا . وهذه القلوبُ لا تُؤْتَى من مأتىً هو أدقُّ وأخفى من توهُّم مافيه اللذةُ فإن النفس ترجع عند ذلك بكل حقائقها الى نوع واحد من الوهم ينصرف بها الى تمثل هــذه اللذة

(١) أي خبير بك وبما تبطن وتخفى

التى استشرفَتْ لها وطمعت فيها ، فاذا طعمُها فى الدم يَهيج لها سُعَارَ[1] الجوع العصبي . وما هي السرقةُ مثلا إلا أن يضع اللص عينَه على المال أو المتاع ويتذوّقَ طعمَ اليُسْر والفائدة فتُجَنَّ أعصابُه جنون الحاجة فلا يَرْعَوِى الى شيء من الرأي يزجره أو يعنعه أو يكفه ويكون في الحقيقة سارقا من قبل أن يسرق . وكذلك يكون الفاسق متى نظر الى المرأة واشتهاها ونبّه معانيَها فى نفسه ؛ وقُل مثل هذا فى كل من طار قلبه أو طار صوابه

أَلْهُ عن وهمك يا بُنَيّ وضع الأمرَ على قاعدته وسدّد نظرك الى حقيقته ودعنى من حبل الباطل الذى تجر فيه شيطانَ هواك أو يجرك هو فيه . وما نتكلم عن اثنين من الخليقة أنت وهي ، ولو أن الأمر قد انحصر فيكما وفَنيتَ بالحب فيها لكانت هي الكونَ كله ولو فنيتْ هي فيك لكنت أنت ذلك الكون . وهذا حرسك الله موضع النقص في النفوس العاشقة إذ تنقطع إحدى نفسين من العالم

(١) ما يأخذ من الجوع الشديد شبه الجنون وحالة الاعصاب متى اهتاجت لامر لاتكون الا هكذا وبخاصة ان كان هذا الامر من الحب

إلى نفسها الأخرى. وهو نقص أشبه بجنون المجانين بل هو مُتمِّمٌ له، فإنما ذهابُ العقل في المجنون المُختَبَل هو نصف الجنون الانساني أما النصف الآخر فهو تَجرّدُ العقل في العاشق المتدَلّه. نصف الجنون في العاشق الذى يتجرد من الناس إلا من أحَبَّ، ونصفه في المَعتوه الذى يتجرد من الزمن إلا الحاضر. إنه ليس للمجنون عند نفسه ماضٍ ولا مستقبَل إذ لا يأمل هذا ولا يذكُر ذاك. وكل سعادة نفسه في هذا النسيان الذى طَمَسَ عليها وتركها كأنما تعيش في غير عمرها بل في كل أعمار الانسانية بل بغير عمرٍ؛ وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخصٌ آخر ممن مضى وممن يأتي مادام الحب قائماً، فالحبيبُ هو الحبيب وكل الناس بعده أدوات. وشخص واحد هو الألِف واللام والحاء والباء، والناس جميعاً نقطة صغيرة مُلقاة تحت الباء فقط ....

(قال الشيخ علي) ثم يَبرَءُ المجنون ويَثُوبُ اليه عقلُه فيعرف أنه كان مجنوناً؛ ويُبغِض المحبُّ أو يسلو ويبرأ من

وهمه في تلك المرأة فلا يرى الا أنه كان بها مجنونا . أفلا يكفي هذا ويحك في الدّلالة على أن الحب والجنون من أمّ واحدة وان اختلف أبَواهما .... وأن رأيَ العاشق في كل النساء كرأي المجنون في كل الناس لا يجوز أن نأخذ بواحد منهما الا اذا أخذنا بالآخر وأقررناه في باب الصواب والعقل إذ كلاهما حاصلٌ من حالة متى تغيرت فانقلبت اعترف صاحبها عليها بالجنون وان كانت احدى الحالتين في طبيعتها ووصفها غير الأخرى : ويْلمّهِ وصفاً من العاشق لو كان مع صاحبه رأي (١) وويلمّه رأيا من المجنون لو كان مع صاحبه عقل

« ※ »

(قال الشيخ علي) : سئل الحلاج (٢) وهو مصلوب يماني

(١) كلمة تقال لتفخيم شأن الامر وتشعر بأنه لا يريده وأصلها ويل أمه والعامة يستعملون الهمزة ومن اجل ذلك رسمت كلمة واحدة وترسم كلمتين اذا أمن الخطأ فيها

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي المشهور اختلف العلماء فيه اختلافا كبيرا ورمي بالكفر وقتل سنة ٣٠٩ للهجرة وهو فيما نراه من اكبر رجال الحقيقة وما زال هذا التصوف كالحقيقة فيهما هي موضع المعرفة وموضع الجهل معاً . ومن أبدع ما قرأناه في ذلك ان أصحاب الشيخ عثمان القرشي من أكبر علماء مصر في علوم الحقيقة والشريعة قالوا له يوما : مالك لا تحدثنا بشيء من

غصّةَ الموت : ما التصوف ؛ فقال لسائله أهوَنُه ما ترى ... فهذا رجل يموت في سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماويّ العجيب ؛ وعلى أنها قد دقّت المساميرَ في أطرافه وجمعت لموته آلامَ الحياة كلها وأنبتت في كبده من وَخَزَات الجوع شجرةً من الشوك وأطلقت في عروقه من لَذَعات العطش لهيباً من النار ، وتركته على صليبه ممدوداً تتساقط نفسه كما يتَنَشَّر الثوبُ الذي بَلِيَ وانسحق فهو يتمزّق من كل نواحيه — على هذا البلاء كله لم تتغير الحقيقة في رأي الرجل ولا فسد موضعُها في نفسه . ولا رأى ما يكرهه الناس من الآلام مكروهاً في ذاته فيميلَ عنه ولا ما يحبونه من اللذة شهوةً فيميلَ إليه ، ولا تَسَحَّبَ قلبُه حركةً واحدة في

أخذه عني . فسألهم كم أحدثتم في اليوم : قالوا ستمائة وقال انتخبوا منهم مائة فانتخبوهم فقال اختبروا من هؤلاء عشرين فاختاروهم فقال استخلصوا من العشرين أربعة فكان من الأربعة أئمة الجماعة ابن القسطلاني وابن الظاهر وابن الصابوني وأبا عبد الله القرطبي . قالوا فلما انتهى الأمر إلى ذلك قال الشيخ رحمه الله : لو تقدمت بكلمة من الحقائق على رؤوس الأشهاد لكان أول من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة . فتأمل غور هذا البحر فما أبعده غورا ، وتوفى المرسى سنة ٥٦٤ .

السخط على الحكمة الالهية فانتقصها برأى أو اغتمز فيها بكلمة؛ بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحدّ الانساني المنتهي فيه؛ الى ما يبدأ عنده الحدّ الإلهي الذى لا ينتهى، ورجع آخره الى أوله فكأنما يقول بلسان حكمته فيما نَزَلَ به : اللهمّ إنك بدأتنى طفلاً غِرًّا جمله فِقدانُ العقل لا يملك مع أحد الا صياحه فخذنى اليك طفلا عاقلاً جماله العقل لا يملك مع أحد ولا صُياحه

واذكر الطفلَ يابنيَّ فرُبَّ مُعضلة من أمور هذه الدنيا يحار الناس فى آخرها وهي محلولة من أولها، وما هؤلاء الأطفال إلا الأساتذة الذين يعلموننا وهم يتعلمون منا، غير أننا لا نأخذ عنهم فلا نصلُح ويأخذون عنا فيَفسُدون. أفرأيت ولد الشَّوهاء تعرف عيناه فى كل ما طلعت عليه الشمس أجملَ من وجه أمه أويرى طلالاً في وجه سواها أو يحنّ الى غير طلعتها أو يسكنْ الى صدر غير صدرها حتى كأن الله لم يخلق وجهَ حبيب لقُبلات محبه الا وجهها هي لقبلاته؟

إنه في ذلك ينظر من ناحيتين : الأُولى ناحيةُ صفائه هو فإن القلب إذا لم يكن بهيميًّا منعكسا أشرق صفاؤه فيما حوله فلا يرى إلا خيراً ، ولَبِست المَرْئيُّ صِفَةُ الرائي فلا ينظر إلا جمالا ، واتصل الشعور الطيّب الرقيق الجميل بين نظر النفس وبين ذاتِ النفس كما يصل الشعاع الذي يلقى على حائط من المصباح — بين هذا الحائط وبين المصباح فيُغَشِّيه النورَ وإن كان الحائط نفسُه من الطين . فاذا كان القلب بهيميًّا زائغا عن الانسانية الى حيوانيته استفاضَت ظلمتُه وشهواته على ما حوله فلن يشهدَ من صفات الجمال شيئاً بل يرى في كل شيء من صفات نفسه هو ، حتى ليكون الوجود كله في عين بعض الناس كما يكون الطعام كله في فم المريض . ومثل هذا يعشق أجملَ النساء فلا يرى فيها جمالا ألْبَتَّةَ وإن هو خدع نفسَه في ذلك واختدع الناسَ ، وانما يرى شهواتٍ ؛ شهواتٍ جميلة ليس غير

أما القلب البهيميّ غيرُ المنعكِس وهو ذاك الذي

تحمله البهائم، فلا يحتفل فيه عقل ولا يحتشد فيه خيال وما هو الا أن ينصبَّ الحيوان به على محض المنفعة لأنه عامل في الطبيعة يعدّ من عمالها لا من شعرائها ... فليس عنده جمال يقع في ظاهر الروح وآخر يقع في باطنها وثالث متوهَّم لا يقع ولا يمتنع أن يقع [١]؛ وليس يعرف من معنى القبح الا أن تكون الأنثى قد طاش بها المرض فما تستقلُّ إعياءً وضعفاً. وبذلك سلمت إناث البهائم من شر كثير علا لغة الحياة النسائية بمعانيه وتجمعه كلمتان: الجمال والقبح

والناحية الأخرى التي ينظر منها الطفل لأمه الدميمة الشوهاء ناحيةُ الصفات الالهية فان الحب الصحيح الذي يمكن أن يسمى حبًّا لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتركيب وتناسق وغيرها مما يظهر البشريةَ على أتمّها أحسنها في الشخص المحبوب كما يظن الناس خطأ؛ بل هو نقيض ذلك أي فيما يخفي البشريةَ بمحاسنها وعيوبها

(١) رأينا هذه الكلمة مروية للمأمون وهي: ان الجمال اذا وقع في ظاهر الروح كان صباحة واذا وقع في باطنها كان ملاحة. وزدنا عليها ما هو فوقهما مما لا يعرف الا بالتخيل ولا حقيقة له في الواقع

جميعاً ويُظهر في أمكنتها خصائصَ الروح المحبوبة وحدَها. فمن ثَمّ يبدو لك شخص المحبوب على أيّ أشكاله وهيآته كأنه تمثال سماويّ وُضع لروحك خاصةً فهو مجبولٌ من مادة واحدة هي مادة الفتنة ولو كان في أعين الناس كافّةً تمثالَ الأرض السُّفلى يُصور كل ما اشتملت فيها من القبح

فاذا لم تظهر لك خصائصُ روح المرأة ظهوراً يستفيض على وجهها وجسمها ويجعل كلّ شيء فيها ذا معنى منه وكل معنىً منه ذا معنىً فيك فما أنت من حبها في شيء ولو ذهبتْ من جمالها بعقول الناس ولا هي عندك من الجمال في شيء ولو كانت في النساء كليلة البدر في الليالي. ومن أجل ذلك لا يخلو الحب من بعض معاني الوحي ولا تخلو الحبيبة من بعض المادة الملائكية[1] في النفس التي تعشقها، وهل ذلكَ الوحي الا قوة المزج السماويّ في نفوس الأنبياء، وهل روحُ الحبيبة إلا شيءٌ قدر من مثل هذه القوة في نفس

(١) نسبة الى الجمع للخفة وفرقا بين هذه وبين النسبة الى الملك (بكسر اللام) فانها ملكية (بفتح اللام)

محبها؟. ولعل هذا يفسر لك سراً من أسرار الاحتراق في بعض الأرواح العاشقة التى تيَّمها الحب فان تلك القوة الزجيَّة متى أفرطت على نفس رقيقة حسَّاسة أذابتها واشتعلت فيها فأكلتها أكلَ النار للهشيم وتركتها تحترق أسرعَ ما تحترق لتنطفىء أسرعَ ما تنطفىء

« * »

(قال الشيخ على) تلك هي الحقيقةُ يابنىّ فلن يأتي لكائن مَن كان أن يقسم النساء الى جميلات وقبيحات إلا إذا طوى في ذلك معنى القسمة الى شهوات جميلة وشهوات قبيحة ، ومتى انتهينا الى هذا فقد خرجنا الى المخاطبة بلغة لاهي من لغة البهائم ولا هي من لغة الانسانية .

أفرأيت قط ألفاظَ الجمال والقبح تشيع فى أمة من الامم وتعلو بالاعين عن النساء وتنزل وتعتدّ (١) بها وتنقبض إلا أن تكون أمة ضعيفة القوة قد اختلت أجسامها أو ضعيفة الدين قد اختلت أرواحها؟

(١) يقال عات العين عن كذا أى نبت عنه نفورا فلم تلصق به فاستعملنا منها نزلت كما ترى

انكشف القمر ذاتَ ليلة لرجل اسمه « من عباد الله المقرَّبين [1] » فاذا البدر أسودُ كالحبر واذا مكتوبٌ في وسطه بالنور « أنا وحدي »؛ فالقمر نفسه لم يمنعه كل ضياء الشمس عليه أن يسودّ في عين الرجل الكامل الذى ينظر لروحه ؛ فما الذى يمنع من ينظر لروحه وخصائصها أن المرأة تصير القبيحة في عينه كالقمر الأزهر ؟

« * »

في البدر ظهرت كلمة الألوهية « أنا وحدى »
وفي وجه الحسناء تقرأ كلمةَ الالوهية « أنا وحدى »
فهل يمكن ان تقعَ الدميمةَ من الحسناء أقبح مايقعُ

(١) هذا تهكم من الشيخ على بريد به طاشة فتياننا وفتياتنا ممن يرون الدين شيئا قديما في لغة قديمة ونفوس قديمة ومذهب قديم . فابيناأهم البلاء الجديد الذى حل من أنفسهم محل الدين فجعل الرجل بلاءاً على المرأة ان تزوج بها او اهلها والمرأة بلاءاً على الرجل ان كانت له أو لنفسها والوطن بينهما يقول ما تقول جهنم لأهلها « لاتدعُوا اليومَ ثُبوراً واحداً وادْعُوا ثُبوراً كثيرا »

ظلام القمر من نوره فلا تكون في وجهها هي أيضاً كلمة الالوهية « أنا وحدي » ؟

« * »

لم يبق في البدر مع الحكمة العليا شيء يسمى الجمال ولا المرأة الحسناء يكون فيها شيء أجمل من القمر؛ فهي مثله ليس فيها مع تلك الحكمة شيء اسمه الجمال ؛ أفيمكن أن يكون مع الحكمة نفسها في وجه القبيحة شيء اسمه القبح ؟

« * »

القمرُ طالعٌ مُشرِقٌ كما كان
والجميلة الحسناءُ لا تزال فاتنة
والدَّميمة ظاهرةٌ كما هي
لم ينقص الكونَ من ثلاثتها شيء
ولكن أين عينُ الرجل الكامل ؟

الفصل الثامن

﴿ الشيخ احمد ﴾ (١)

والساعةَ أرى سحابي أصفى ما تمثَّل لي وأرقّه كالسماء في صَبيحةِ سارِيَةٍ (٢) إذا غسلها الليل وأصبحت لابسة حريرَها من شفق الصبح الأحمر ؛ وأراني أنظر إليه وأهتِف له وأستَشرِفُ في ضوئه كالطائر لايسعُه جِلْده مَرَحاً وتقلباً ، حنيناً متى أصبح من الليلة الممْطِرة إصباحَ الشمس بعد أن أبانَهُ المطرُ بيتَهَ كأنهافي عشِّ السحاب .

وأشرق عليه صديقي هذا ؛ ولا ومصرِّفِ القلوب (٣) إن ذكرته منذ لحق بربه إلا أخذني من الحنين اليه مالا يكون مثله لصديقٍ ميت بل لحبيب هاجر يُشعِرك موتَ الأيام كيف يكون . كانت صحبته إياي من أطراف الطفولة الى

(١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ احمد الرافعي ابن عم الكاتب وصديق نشأته ورفيق شبابه ، والكاتب خال أولاده . ذهب رحمه الله يقضي فريضة الحج وأفضى الى ربه من هناك ودفن بمكة

(٢) صبح ليلة فيها مطر والسارية السحابة تمطر ليلا

(٣) هذا قسم وكان اكثر ما يقسم به النبي صلي الله عليه وسلم

آخر الشباب الى تُخوم الكهُولة وهي أيام شبَع العمر لا يَطْعَم فيها من شيء إلا طَعِمَ من لذة وما بعدها من تقاصُر الحياة واختلالِها إلا كأيام سوء الهضم ....

إذا كان في امرىءٍ من الناس باقٍ بعد شبابه فما أشبه هذا الباقيَ في جانب ماقبله بنَواة الثمرة الحلوة من لبَابها ؛ تنتهي فيما تأكل الى النواة ولكن بعد أن يكون أطيبُ مافي الثمرة قد انتهى ، وتُفضي مما ينعصر في الريق حلاوةً ويسيل في الحلق لذةً الى بقية من الخشب رَطْبه أو يابسِه ، فلو كانت النواةُ من الذهب ما رجَعَتْ لك من ثمرتها رَجْعة[1].

يا أيام الشباب أنت وحدك نور الحياة لانك منذُ الفجر ، وأنت وحدك نهارُ العمر لأنك الى أن تَصفَرَّ الشمس ، وليس وراءك إلا كآبةُ الليل تتقدم ليلها باسمة في شفق المغرب .

يا أيام الصبّى أنت وحدك الحبُّ لان فيك مافي عيون الحبيبات أشخاصاً روحية ظاهرةً بمعانيها الفتانة فهي تلق

(١) الرجعة ما تسترده مما فات

أشعة الجمال على كل ماتنظر إليه .

يا أيام الرجولة الأولى إن في زمنك وحده تحل السعادة في العقل إذ يكون العقلُ في عهدك ما يكون الطفلُ في عهده ، لانه تجري من معاني الدموع والابتسام والضحك ولا يَستدير به إلا الأفواه الحبيبةُ التي تقبّله أكثر مما تَزجره ؛ وحتى لو ضُرب لكان الضرب سببا من أسباب تقبيله فيما بعد . . .

يا أيام الشباب أنت وحدك العمر ، ومن بعدِ الشبابِ كلُّ شيء يكون ففيه من الماضي فِعلٌ مستتر تقديرهُ كان

« * »

يرحمك الله ياصديق الكريم ؛ تركتنا مُصعِدا الى الله في سُلَّم كانت الأولى من درجاتها عَتَبةَ هذا البيت في مصر ، وكانت الأخرى تلك العتبةَ الطاهرةَ من بيت الله في مكّة

وذهبتَ عنا وما علمنا أنك طائر يُغَطّى تحت ريشه سرُّ الجاذبية العُليا

واستودعتَنا اللهَ واستودعناك فاشتبكتْ دموعٌ في

دموع وما حسبنا أن أرواحنا تقيم من ذلك مَنا حتَها قبل الفراق الأبدى

وخاطبناك عند البَيْن وخاطبتَنا وما عرفنا أن السماء كانت وقتئذٍ تكلّم الأرضَ من شفتيك بألفاظٍ لهامابعدَها

ونظرتَ الينا طويلاً تلك النظرةَ التى لاتكون إلا ممن يَعرف حتى لا ينكر شيئا ، أو ممن ينكِر حتى لا يعرف شيئا ، فاذا أنت تنظر من أعماق الأزَل فى تراب هذا العالم ونحن لاندرى

وسألنا الله أن يردّك علينا أيُّها العزيز فأثبت لنا أنك من أعز مافى الحياة حتى سقط دونك الأمل فلا يتمثَّلك الا الفكر وحده

« * »

وذهبتَ الى بيت الله متجرداً من الدنيا ليس لك منها إلا جسمُك لِتَخِفَّ الى محبته ورضاه ، فاما شاهدتَ التجلّيَ الأعلى تجردتَ من جسمك أيضا واتصلتَ بنوره سبحانه وتعالى . فلقد خلعتَ الدنيا مرتين ومات بعضك في

مصر وباقيك في الحجاز ، وخَلَصَتْ روحك الى ربها كما تخلُص الجوهرة صافيةً متلألئة بعد استخراجها من معدنها مرةً وصقلها للرونق مرةً أخرى

وأبى الله لروحك الطيبة الا أن تمرَّ في بيته قبل أن تمر اليه فتسبح في نور الملائكة وتتنسم ناحيةَ مهبّها وهي تصعد أو تنزل بالرحمة على الحجيج (١) وتستضيء بتلك الشعلة القدسية التي أضاءت في الكعبة من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم من سرائر أصحابه الطيبين ولا يزالُ ضوءها هناك كضوء الكوكب مُلتمعاً في سواد الحجر الأسود

((*))

واختار الله لك بعد إذ انغمستَ في نوره أن تصعد اليه فلا ترجع من ذلك النور الأزليّ الى ظلام الدنيا ، ولا تعود من النبع السماويّ الى حمأة الأرض ولا تحلّ في بيت من بيوت الخلق بعد بيته هو عزّ وجلّ

(١) هم الحجاج

واختار لك ما عنده على ما عندنا فما في أيام هذه الحياة الا غبارٌ يثور على غبار ، ولا في الناس إلا أحجارٌ تتحطم على أحجار ، ولا في أخلاقهم إلا أقذار تنصبُّ على أقذار ، ولا بين الحوادث والناس الا كما بين الرياح والقِفار ، ولا بين الإخوان والإخوان إلا كما تُجمع الأصفارُ من الأصفار . . . .

واختارك الله إذ اختار لك فما تركت يرحمك الله الا عَلانِيَةً مشهودة ، وسَريرةً محمودة ، وآثارا في الصالحات ممدودة ، وأفراخاً في شجرة الحياة كصِغار الطير اذا رأت أباها فارَقَ عُودَه

يرحمك الله إن أول ما يشهدُ لك عند الله كعبتُه إذ كانت آخِرَ ما عرفتَ من الدنيا ؛ وإن الذي يدخل السماءَ من باب الكعبة لَحقيقٌ أن تضعَ له الملائكةُ أجنحتَها سلاما وتحية . فهنيئاً لك إذ فتحتَ بابَ السماء بتلك القُبلة الزكية التي وضعتها على أستار الكعبة ؛ وهنيئاً لك إذ ذهبتَ لتقول لبّيك اللهمّ لبّيك فانطلقتْ روحك الطاهرة

فيها وكانت أول كلماتك في السماء .   وهنيئاً لك ثم هنيئاً إذ قطعت البحرَ والبرَّ الى خير بِقاع الدنيا لتقول لله من هناك : هأنا يا إلهي

« * »

ان الحقيقة لا تَسأل كيف يحيا الحي ؟ ولكن كيف يموت ؛ ولا تَتَعَرّفُ ما قُدرتُه على الإقامة ؟ ولكن ما قدرتُه على الرحيل ؛ ولا تبالي ما قوّتُه على الرسوخ كالجبل ؟ ولكن ما قوته على الوثوب كالطائر .   فهناك بين حدود الدنيا وحدود الآخرة موضعٌ هاوٍ لا يتخطاه الا ذو جناحين قد اشتدّ كل منهما ووفى[1].   وهناك متى انتهى الانسان وجد عقله وضميره قد امتدّا من جانبيه كالجناحين ورأى كلَّ عمل من أعمالهما في السيئة والحسنة — إما ريشةً قد نَسَلَها من جَناحه وإما ريشةً قد أنبتها فيه

القدرةُ على جو السماء في جناح الطائر وفي ريش هذا الجناح وفي قوة هذا الريش ؛ والقدرة على السماء نفسها في

(١) طال ريشه

عمل الانسان وقيمةِ هذا العمل وصحةِ هذه القيمة

« * »

لسنا نبكي عليك أيُّها العزيز وانما نبكى على أنفسنا فان ما أمامنا لا يمكن أن يكون دنيًا غير الدنيا يُفتَح لها تاريخ غيرُ التاريخ . والحقيقة التي ضمَّتها ملايينُ « المجلدات » المحفوظةِ فى القبور [1] هى هى بعينها ان تتغير وان تتبدَّل . فاذا بكينا الميتَ فما بكينا ذهابه عنا ولكننا نبكي لبقائنا بدونه ؛ كما اجتمع نفر من الغُرباء فى البلد النائى ؛ فيُختَرَمُ أحدُهم [2] فما يَرَوْنه الا معنى من أنسهم قد زال ، وركنـا من قوَّتهم قد مال ، وجانبًا من نظامهم قد أفسده الاختلال . وما دام فى الارض باكٍ على ميت فالأَرض دارُ الغربة لكل من عليها ، وهى لن تكون وطنًا لمن سيفارقها الا إذا عُدَّ بطنُ الأُم وطنًا لابنها

من وطن الأشهر المعدودة ينحدر الانسان الى وطن السنين المعدودة . أما الأَزَل والخلود والوطن الانسانى

(١) كناية عن الناس (٢) يهلك بجائحة من الجوائح

الـكبير فهناك . هناك حيث لا تساوى كرةُ الأَرض بما فيها أكثر مما تساويه ذَرَّةٌ من التراب تَصْعَدُ أو تهبط

وهذا الذى نكرهه عقلاً من أمر الدنيا هو الذي نرانا مضطرين الى أن نعقله كرهاً شئنا أو أبَيْنا

فابكي أيتها الأعينُ الانسانيـة وتهيَّئي للبكاء ما دمتِ باقية . إن تيار هذا البحر الذي تنصبُّ فيه الأحزان لا يَعُبُّ من دموعنا (١) التي نبكى بهـا لمـكابدَة الموت ولـكن من دموعنا في مُنَازَعة البقاء .

« * »

لَهْفى لذكراه صديقاً كانت نفسه العاليـة كالنجمة وُهبت قوةَ النزول الى الأرض ، وحبيباً لو انقسمت روحى فى جسمين لـكان جسمها الثانى . .

كان دائماً كالذى يشعر أنه لا بدَّ ميتٌ وتاركٌ ميراثَ مودَّته فلا أعرف أني رأيت منه الا أحسنَ مافيه ، وكأنما كان يضاعفُ حياتى بحياته ويجعلنى معه إنسانين

(١) أي لا يتدفق

وكان له دِينٌ غَضٌّ كعهد الدين بأيام الوحي لا تزال تحته رِقّةُ قلب المؤمن وفوقه رَفّةُ جناح الملك يُخالط نورُه القلوب

وكان حَيِيًّا صريح الحق ترى صدقَ نيته في وجهه كما يريك الحق صدق فكره في لسانه. ساميًا في مروءته ليس لها أرض [1] تَسفُلُ عندها وإنما هي الى وجه الله فلا تزال ترتفع. وَدُودًا لا يعرف البغض محبًّا لا يتّسع للحِقْدِ ألوفا لا يسِرُّ المَوْجدَة على أحد

وكان رَحيبَ الصدر كأن الله زاد فيه سَعة الأعوام التي سينتقصها من حياته ففي قلبه قوة عُمرين. وكان طيّبَ النفس فكأن الله لم يُمدّ في عمره طويلاً لأنه نفى منه الأيام الهالكة التي يكون فيها الانسانُ للانسان معنىً من معاني الموت [2]

« * »

(١) كناية عن انه لا ينحط فيها ولا ينزل سفلا (٢) كأيام القطيعة والعداوة والكيد ونحوها مما يجعل أعمار الناس أقصر مما هي

آه لو عرف الحقَّ أحدٌ لما عرف كيف ينطق بكلمة تسيء ، ولو عرف الحبَّ أحد لما عرف كيف يسكت عن كلمة تَسُرّ ؛ ولن يكون الصديقُ صديقاً إلا اذا عرف لك الحقَّ وعرف لك الحب

لا أريد بالصديق ذلك القَرِينَ الذى يصحبك كما يصحبك الشيطان لا خيرَ لك إلا فى مُعاداته ومخالفته . . . ولا ذلك الرفيقَ الذي يتصنّع لك ويُماسِحك متى كان فيكَ طعمُ العسل لأن فيه رُوحَ ذُبابة . . . . ولا ذلك الحبيب الذي يكون لكَ فى همِّ الحب كأنه وطن جديد وقد نُفيتَ إليه نفيَ المُبْعَدين . . . . ولا ذلك الصاحبَ الذي يكون كجلدة الوجه تحمرُّ وتصفرّ لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها . فكل أولئك الاصدقاء لا تراهم أبداً الا على أطراف مصائبك كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدىء المصيبة لا من أين تبتدىء الصداقة . ولكن الصديق هو ذلك الذي اذا حضر رأيتَ كيف تظهر لك نفسُك لتتأملَ فيها ، واذا غاب أحسستَ أن جزءاً منك ليس فيك

فسائرك يَحنُ اليه . فاذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك، وإذا تحوّل عنك ليصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود ؛ واذا مات ؟ يومئذ لا تقول إنه مات لك ميّت بل مات فيك ميّت ؛ ذاك هو الصديق

« * »

وكنا ذاتَ يوم على شاطىء النيل وبَزَغَ الهلالُ كأنه إصبعُ مَلَك من الملائكة خرقت ستار السماء لتُحدِث فيه ثقباً تنظر منه الى نجمة ستهوى . فقلت له هذا الهلالُ ما انفكَّ يتلقّى نورَ الشمس منذ خُلق وهو في نفسه مظلم أبداً ولكنه من صحبته للنَّيّر قد أنار وصار مع الشمس شمساً بيضاء ؛ فما أكرمَ الصداقةَ من نعمة لو أصابها المرء على حقها فيمن خُلق لها . كان أهل الكيمياء القديمة يسمونها « علم زراعة الذهب » وأنا أسمي كيمياء الشمس في هذا القمر « زراعةَ الفِضّة » فماذا تسمي أنت كيمياء الصداقة في معادن القلوب ؟ قال أُسميها « زراعةَ الخير » . قلت فان لم يُنبت وأكله لؤمُ أرضه ...؟ قال ذاك الى الله لا الينا

فان فى هذا الوجود قانوناً دقيقاً للخَيبة لا يتسامح في شيء وما يعرف منه الناس إلا حكمه ُحين يقضي فينفذ قضاؤه بدَرْك الشقاء . ألاَ إنه ما من الخيبة في الحياة ُبدّ فأنها ردُّ الأقدار علينا حين تقول «لا» ؛ وهذه الخيبة هي العلم الذى موضوعه أن يعلم هذا الانسان المغرور أنه شيء في الحياة لا كلُّ شيء فيها . فاذا كَذَبكَ صديقُك مما قِبَله وغمّك بكثرة خطأه وزَلِله فلا تزرعْه مَقتاً وبغضاً بعد أن زرعتَه خيراً وحباً، ولا تقطعْه بل انتظر فَيْأَته[1] فان فِتْنة الصدر غامضة ، ولقد يكون أشدُّ البغض من أشد الحب وليس لنا مع ُسفن القلوب اذا اختلفت رياُحها وهبّتْ عواصفها الآن نطوي الشراع ولكن الى وقت .

فاذا جَهَدَك البلاء من صاحبك وبلغ منك اليأس فما يسوغ لك أن تكون معه إلا كالذى حفر الُحفْرَة ثم َطمّها بترابها[2] ألقى فيها ما كان فيها من قبل ومضى كأنْ لم يكشفها قلت آه . فاذا كانت الحفرة من شرها فى عمق البئر

(١) الفيأة الرجعة كما يدور الظل ثم يرجع الى مكانه (٢) ردمها وغطاها

ذاهبةً الى الأغوار البعيدة أفأقضي شَطْرَ العمر أردم فيها بعد أن قضيتُ شطره أحتَفِرُ منها ؟ قال فدَعْ ذا واجعلها بئرا سواك . قلت ولِمَ لا أدعها بئرا خَسِيفَةً[1] يلعنها عمقها الغائرُ فيها بأنها فارغة مظلمة ويلعنها ترابها القائم عليها بأنها متروكة مُهْمَلة ؟ قال سبيلُ الفضيلة غيرُ هذا فكن مع الناس في حال تُشبه محلَّ نفسك لا محلَّ أنفسهم ؛ وما أنكر أن من الناس من يوقعون في نفسك الظِّنَّةَ[2] بكَيْتَ وكيتَ من سوء خُلقهم وكذا وكذا من قبيح أعمالهم حتى لتكون صداقةُ أحدهم كأنها نصفُ معركة حربية . . . ولكنَّ الهزيمةَ عن صديقك وأنت صديق خيرٌ من النصْرة عليه وأنت عدوّ . فتحصَّنْ من كيد هؤلاء وأشباههم بالانهزام عنهم لا بمدافعتهم فذلك إن لم يُقعِدهم عنك لم يُلحقهم بك ثم إن ردك اليهم رادٌّ بعدُ كنت الأكرم

واعلم أن أرفع منازل الصداقة منزلتان : الصبرُ على

(١) أي منخسفة من الارض
(٢) الظنة التهمة تجد من أخلاقهم وأعمالهم ما تتهم صداقتهم به . . .

الصديق حين يغلبه طبعُه فيسيء اليك ، ثم صبرُكَ على هذا الصبر حين تغالب طبعَك لـكيلا تسيء اليه

وأنت لا تصادق من الملائكة فاعرف للطبيعة الانسانية مكانَها فانها مبنية على ما تكره كما هي مبنية على ما تحب ، فان تجاوزتَ لها عن بعض ما لا ترضاه ضاعفتْ لك ما ترضاه فوَفَتْ زيادتُها بنقصها وسَلِمَ رأسُ مالك الذى تُعامل الصديقَ عليه

« * »

قلت فانى لا أعنى ذلك الذي أضع « رأس » المال بيني وبينه ولكن شخصاً آخر وضعت « قلب » المال بيني وبينه . . . قال فهينا إذن ؟ ومن هنا صارت الحفرة بئرا . . . ولكن أفتني فانى لا أعرف هذا الذى تسميه الحب فهل هو بين النفسين شيء غير الصداقة ! قلت هو هى إلا فرقاً واحداً . قال إن كان واحداً فلقد هان فما هو ! قلت الفرق بينهما أنك ترضى أن يكون الصديقُ لنفسه أكثرَ مما هو لك ولكنك لا ترضى إلا أن يكون

الحبيب لك أكثرَ مما هو لنفسه . قال فذاك رِقٌّ لا حب .
قلت وهذا هو الذى يجمل الحفرة بئراً ، فالصداقة فى المودّة تجذب الطبع من الطبع ليتفقا ولكنها فى الحب تجذب الطبعين ليكونا دائماً عند النقطة التى يتناقضان منها .   وأعظم ما يسوءك من الصديق لا يزيد على أن يردك الى نفسك وحَسْبُ ، ولكن أيسر ما يغضبك من الحبيب يسلّط نفسَك عليك بسوء التحكم والإعنات والآراء الفاسدة حتى يترك دمَك وكأنه تيار من الغيظ ، فاذا حبيبُ نفسك أعدى أعدائها واذا هو قد أصبح العدوَّ لانه لا يزال الحبيب .
قال أَمَا إن هذا تعقيدٌ على النفس وهو العلة في أن المحب المَغيظَ لا يسكن غيظه ولا يهدأ فَوْرُه لانه يحل العقدةَ الواحدة بطريقة تجعلها عقدتين . ولكن أو ليس خيراً لك اذا أنت دُفِعت الى المداوة في الحب أن تستشعر بكرم المَلَك الذى في نفسك لؤمَ الحيوان الذى في صاحبك فترجعَ بنفسك أنت الى ملَكيتها وتردَّه هو الى حيوانيته
أما إنى أعرف لاهل الحب دواءً ما يَعرض بعده رجل

من امرأة أساءت اليه . أيها العاشق أما صَدَمتك بهيمةٌ من البهائم او رَمَحَتْك [١] او جَمحتْ بك فأوجعتْك بلا غيظ وأساءت اليك بلا حِقد وكسرتْك بلا انتقام ولم يتعاظمك من أمرها شيء في الوهم ولا في الحقيقة ؟ ألا ويحك ألبِسْها جلدَها وحوافرَها [٢] . . . ولا تتمثلْها في مخيلتك الا وجهاً جميلا على جسم حيوان ؛ فانك إن تفعلْ ذلك وتأخذ نفسك به تطمسْ عليها في محبتك طمساً ولا تجد لها في قلبك الا النفرةَ والاشمئزاز وتُعجز فيها الشيطان لا يدرى من أين يأتيك ولا كيف يتدسّسُ بها الى دواهيك مادام لها عندك الجلدُ والحافر . . .

ولعل الناس لم يعتادوا فيما بينهم أن يَتنابزوا ويتسابُّوا في عبارات السقوط والتحقير بأسماء من أسماء البهائم كالكلب والخنزير والحمار الا على هذا الأصل الذى بينتُهُ لك تُوحي به غريزة الكراهة والسقوط من حيث يدرون أو لا يدرون

(١) رمحت الدابة رفست (٢) نحسب هذه العبارة ستجري بين المحبين مجرى الامثال فاذا شكا اليك محب يريد السلو ولا يطيقه فاختصر علم النفس كله في قولك « ألبسها جلدها وحوافرها »

الحب ليس شيئاً غير الجمع بين أعلى الصداقة وأسفلها .
ألا ترى أنه ما دام الحبيبان على أسباب الرضا فكلاهما أو أحدهما يتمثّل الآخر كما يتمثّل ملَكاً من الملائكة بل ويسميه الملَك الحارس أو الملك المُوحي أو الملَك المقدس .

فاذا صارا الى الخلاف واستحكم بينهما لم يُغن طلبُ المعاذير تتعزّى بها الصداقة ولا طلبُ العَثَرات تشتدُّ بها المداوة ، وليس للمَغيظ منهما شيء دون أن يعمدَ الى تلك الصداقة فيجعلَ عاليَها سافلَها . فلم يبق حينئذ إلا أن يكون صوابُ الحب فى هذه الحالة قائماً على عكس الحالة الاولى . فما كان في صورة مَلَكية ليثبت عليه الحبُّ وجَب أن ينقلب في صورة حيوانية ليزولَ عنه الحب

« * »

يامن أسكره الغرامُ . إن عَرْبَد حبُّك فاحطم كأسه وأرقْ خمرها ولا ترها الا سمًّا فان أكبر البلاء على السكّير أن يُلبس الحقائقَ المهلكةَ أثوابَ زينتها ، فيزعم بينه وبين نفسه أنه لا يشرب الخمر ولكنه ينقعُ غُلّة أحزانه بكأس

من ماء السرور، ولا يتوحّل في السكر ولكنه يَستَمْطِر على خموله سحابةَ النشاط، ولا يتجرّعُ الجنون ولكنه يُذيبُ همومَه في جرعة من النسيان ....

ألا ما أصدقَ الخمرَ في السكير وهي صامتة، وأكذبَ السّكيرَ على الخمر وهو يتكلم .....



الفصل التاسع

﴿ الشيخ محمد عبده ﴾

وشفَّ سحابي عن جلال رائع يضطرب القلب له أذكرني روعةَ السحابة التي كان يهبط فيها مَلَك الوحي ليست في نفسها آية ولكن الآية فيها

وظهر لي وجه الشيخ وما أدراك من الشيخُ ثم ما أدراك من هو[1] . رجل كان في تركيب العالم الاسلامىّ أشبهَ بالجبهة من جسم المؤمن؛ هى مَجْلى نور الإيمان وأعلى ما يرتفع للأعين ولكنها مع ذلك أول ما يسجد لله من هذا الجسم كله

خلق فصيحاً مُبِين اللهجة لأن لسانه أُعدّ لتفسير معجزة الدنيا في هذه اللغة فكان لسانه ولا غَرْوَ معجزة في

(١) قال الراغب : كل موضع ذكر في القرآن (وما أدراك) فقد عقب ببيانه نحو « وما أدراك ماهيه ، نار حاميه » وكل موضع ذكر فيه وما يدريك لم يعقبه بذلك نحو « وما يدريك لعل الساعة قريب » . قلنا وهذا من أدق معاني الاعجاز فان « ادراك » صيغة الماضي والماضى مكشوف معروف لانه وقع ولكن يدريك صيغة المستقبل والمستقبل محجوب فتأمل وكرر النظر فان المقام لا يتسع هنا

الألسنة ، وكان له بيانٌ ينبَثُّ من طبعه المصقول كالشعاع الذي تُوامِضُكَ به المرآةُ اذا انقدحت جَمْرةُ الفَلَك عليها (١)

وكان له عقلٌ لو وُزِنَ في رُجحانه لعُدَّ بين العقول من مَوازين التاريخ ، وقلبٌ إن يكن في جنبيه كالقلوب التي وضِعَتْ على مُنحدَرِ المعاني الأرضية فانه كان دون القلوب على مَهْبَط السموات (٢)

رجلٌ لم يُخلق من قبلِ زمنه لأَن الأَقدار المُصرِّفَة ذَخَرَتْه للقرن الرابعَ عشرَ تجعله وأصحابَه النهضةَ الثالثة في الإِسلام (٣) وكتبت له أن يكون الكنزَ الثمين الذى يُفجأُ العالمُ بانكشافه ليعود القديمُ المُبْدَعُ الذى كاد يُنسى فيتمكّنَ في الأرض بأسلوب جديد. وما يُدريك لعل هذا الحكيم الفَذَّ في علمه وعمله وذكائه وإصلاحه سيكون التمثالَ العقليَّ المُشرِف على الأَجيال ، يفصل في تاريخ

(١) كناية عن الشمس وتوامض تبرق (٢) ليس همه الا المعالي ومصالح الخلق (٣) نهضة الاخلاق زمن الصحابة والتابعين ، ثم نهضة العلم من بعدهم ، ثم نهضة العقل الاسلامي التي كان يدعو اليها الشيخ رحمه الله

الإسلام بين ثلاثة عشرَ قرناً مضت وثلاثةَ عشرَ قرناً تأتي ؟

ولقد كان في تفسير كتاب الله رجلاً وحده على بُعد عصره من فجر الإسلام ، فكان يحمل في رأسه ذهناً كآلة اللاسلكيّ تهبط عليه من أقاصي الدهر شرارةُ النبوّة ، فاذا تكلم في آيةٍ رأيتَ كأنما تتكلمُ الآية نفسُها على مَلاٍ العقل بين مَشارق الأرض ومَغاربها

ولست أدرى على أيّ روح نَبتَ هذا الرجل ولكنّ الذي أعرفه أنه حين أثمر فنضج خَلاَ أذاقَ الناسَ من ثمره طعمَ مُعجزة الفكر العربي

« * »

نظرتُ الى عينيه ذات مرة فخُيّلَ إليّ أن فيهما رهبةَ الأسد حين يُجاّي بنظرة كبريائه (١) ليدلّ على أنه الأسدُ لاغيرُه ، فدَقتُ النظرَ اليهما فاذا رَوْعةُ إنسان هو أرفعُ من إنسانيتنا واذا أنا ألمحُ فيهما ذلك الشعاعَ الغريب

(١) أي يرفع بصره وينظر نظرته الشديدة

الذي ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السرّ الكامن في المعقول والسر الكامن في العقل ، وكأنه استشعر ذلك فتبسّم فكان لنظرته جلال سماوي رحيم أشرق على نفسي كما تُشرق على روح الطفل ابتسامةُ أصله الانساني

كان منطوياً على حقيقة روحانيةٍ يسطع ضياؤها في عينيه وينتشر على ما حوله فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس مع الرجل ولكن مع النفس العالية التي هي فيه (١) ؛ وكان أعظمَ هيبةً من الملوك لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان والمواكب والأسلحة وكثيرٍ من ضُروب التوقير والتعظيم أما الشيخُ فكنت تراه حيث رأيتَه كالمحراب حيث يكون لا يقف عنده الا من وقف ليتخشّع ، وما ذكرتُه إلا

(١) قالت الشيخ رحمه الله في الجامع الازهر مرة من المرات واستأذن عليه طالب من نوابغ الطلبة وأذكيائهم فلما مثل بين يديه وقف كما يقف المصلي واضعاً يديه أسفل صدره رامياً بطرفه الى الارض وتكلم كالمناجي المتضرع حتى فرغ وانصرف . فأعظمت ذلك ولما خرجت لحقت به وكلمته فيه فقال : وأنا أنكرت من جلوسك الى جانب الشيخ تلك الجلسة ما أنكرت أنت من وقوفي على تلك الهيئة . لو تعلم أن أحدنا لا يقف أمام هذا الرجل الا كما يقف العالم ازاء كتاب نادر مضى يفتش عنه عدة سنين فلما رآه سجد لله شكرا وأنت تحسبه يسجد للكتاب

ذكرتُ قول القائل: في هـذه الصورة الآدمية آدَمُ
والملائكةُ له ساجدون

« * »

كانَ هذا الإمامُ الفذُّ في قوة من ربه كقوة الجبل يحمل ما يحمل ولا يتلوى ، وفي سَعَة من طبعه كاستفاضة البحر يَغْمر ما يغمرُ ولا يتغير ، وفي صَراحةٍ من نفسه كاستطارة النهار يَطلُع كما يطلع ولا يَخفَى؛ فهو رجل لكنه فكر من أفكار السماء ، وهو جسمٌ لكنه عضَلَة من عَضَلات الطبيعة ، وهو انسانٌ لكنه حقيقةٌ من حقائق الكون

يصفه الناسُ بأنه الرجل الحكيم الذى أُوتيَ سرَّ الحكمة لينْبُغَ به ، ويصفه التاريخ بأنه الحياةُ المجدِّدةُ التي وُهبت سرَّ العَظَمَة لتعملَ لها ، وتصفه الحقيقة بأنه العقل المفسِّر الذى اتصل به طَرَفُ السر الأعلى ليتكلمَ عنه وليعملَ له ولينبغَ فيه

اذا كان في بعض جوانح الأرض أمكنةٌ نادرة مقدَّسة هى قلبُ الدنيا الذى أودعه الله سرَّ التألُّه ففي

بعض جوانح الناس قلوب نادرة هي كتلك الأمكنة. ولقد كان العالم الإسلامي كله يتصل من قلب الشيخ العظيم بمَنْسِكٍ (١) فيه معنى كمعنى الكعبة اذ تُوَلَّى شَطْرَها كلُّ وجوه المؤمنين

« * »

وأما بعدُ فكأنما أفرط عليَّ القلم فيما كتبتُ عن الحب فانه يخيَّلُ اليَّ الساعةَ أن روح شيخنا الجليل تريد أن تغسل هذا الكتابَ كله وتدعَه ورقاً أبيض (٢)؛ ويخيَّل اليَّ كذلك أني كنت ماضياً فيما أكتبه كما تتعكَّسُ الأفْعَى (٣) في مِشْيَتِها إذ يندفع نصفُها ليجرَّ النصفَ الآخر، فلا تدري إن كان آخرها معلقاً بأولها أو الأولُ معلقٌ بالآخر

وكذلك كنتَ أكتب فقرةً أجد الفكر يجرُّه القلبُ

(١) مناسك الحج عباداته وكذلك مواضع العبادات

(٢) لما انتهيت الى هذا الموضع من الكتابة وفرغت من صفة الشيخ دهمتني فجأة من فجآت المرض أنستني بأيامها كل ما كنت أريد أن أخطه في [illegible] الفصل وكسرت حدة نفسي وهيأتني تهيئة جديدة لكلام جديد وكان هذا من أعجب ما اتفق (٣) تعكسها أن يتراجع بعضها على بعض في انسحابها

جراً ومرة أجد القلب ينسحب للفكر وبين ظَهْرَيْ ذلك (١) أراني ساعةً مُمْتَلِخَ القلب وساعة مُدَلَّهَ العقل (٢) كأني لم أحبّ إلا لأتحول رجلا شاذا تراه في الحب والبغض وفي الصواب والخطأ وفي الفكر والحِس على حَدٍّ مما يُعْرَفُ وحدٍّ مما لا يُعرف فليس كله من هذا ولا كله من ذاك ، وهو محب الا انه يُبغض ومُبغض لكنه يحب

إن زَفْرةً من جهنم ونفحةً من الجنة جاءتا الى هذه الدنيافرأتا من خُبْث الناس بِدْعاً مُبْدَعاً (٣) حتى لا يَخْلُصون بأعمالهم الى جنة ولا نار فلاهم أهل هذه وحدها ولا أهل تلك على حِدَة ؛ فاختلط نَفَس الجنة بزفير النار وامتزجا حَرًّا يستوقدُ الضلوعَ ببرد تثلَجُ عليه الصدور واجتمعا نعيماً ببؤس وراحةً بتعب وسروراً بهمّ ثم وقعا في القلوب معاً فاذا هما الحب . كذلك توحي الىّ روح الشيخ

أنت ياهذا إن أحببتَ امرأةً فهي كما تُثير كل مافيك

(١) أثناء ذلك تقول : هو يتكلم ويعمل كـذا بين ظهرى ذلك، أي في أثناء الكلام (٢) أى ذاهبها (٣) أمرا غريبا

من الكمال تُنبه كل مافيك من النقص ، بَيْدَ أنها تجعل هذا النقص عُلوِيًّا وهو أفسدُ له كالزّوبعَة إذ ترفع من الأرض خَلْقاً ماردا من الغبار ملتفًّا بالنور ذاهبا الى السماء ، فيكون ارتفاعُ الغبار شرا طائرا لم يكن في الغبار الساكن ......

أفتحسَبُ أن حبك إياها هو الحب ؟ كلا بل هو باديء الأمر حبُّك أن تُعجَب بك ثم يزيد فاذاهوالحبُّ أن تميل اليك ثم يبلغ فاذا هو حبك أن تخضع لك . هذه ثلاثٌ كلهن مَفْسَدَة فان هي أدّت في رجل واحد من الانسان الى فضيلة واحدة أدت الى ألف رذيلة في ألف رجل من هذا الحيوان (١)

كل شيء يمكنك أن تضع ضميرك في أوله فتمضي فيه على بصيرة إلا هذا الحبَّ فان ضميرك لا يأتي موضعُه فيه الا آخرا ، فاذا أنت أردت أن يحكم قلبك على من تحبها وأن تأخذ عليها حكمَ قلبها (٢) فانما تريد بنفسك الألمَ

(١) كان أكثر زجر الشيخ لأحد أن يقول « ياحيوان » فيوبخ ولا يقوله الاحقاً (٢) أي لا يحكم قلبها عليها الا بما أردت أنت

لا الحب . تريد أن تستوحي الدموع وتُخرج منها كلاما يبكي . تريد أن تزدَرِعَ شجرةَ الجنون التي ينبت فيها زهر الشعر . وهذا لا يسمى حبا لحبيبة ولا يُؤمَن الا على كبار الحكماء كما لا يُؤمَن فحصُ آلالة المُهلِكة .... الا على كبار العلماء والمخترعين

أنتَ ياهذا إن أحببتَ خاضع لقلبك ولكنك أنت وقلبَك سائران في طريق قلبها ... يقول كل محب في حبيبته: لاهيَ الا هيَ . أفلا يدل ذلك على ضلال الحب وإفساده مَلَكَةَ التمييز وأنه شيء من الخبَل يعتري فكرةً بعينها في العقل ويُخرجها الى الهوَج والبلَه ؟ واذا ساغ لكل محب أن يقول في صاحبته لاهي إلا هي فمعنى ذلك أن (الهيَات) .... كلهن عبَث وباطل وتكون الحقيقة الطبيعية التى يُصَرّح عنها هذا القياس أن كل هِيَ مثلُ كل هي في الواقع ولا انفراد لها الا في عقلٍ مجنون لامِساكَ له من المنطق ولا عبرة به في القياس . من أعجب الأمور أن الصفات التي يعدّ بها الانسان إنسانا تخضع كلها أحيانا الصفة

واحدة من تلك الصفات التي يُعد بها الانسانُ حيوانا.
فان خدعك بائع مثلا في دراهمَ معدودات لا تُغْضِ الأمر على أنه خـدعك بل تعرف أنه غشّك ثم لا ترى أنه غشك بل ازدراك ثم لا تقول إنه ازدراك بل تَهَزَّأ بك ؛ وهذه حركة النفس في اندفاعها اذا تُركت تندفع وتركت المعاني الغضبيةُ تخوض في دمها.

ومن ثَم فلا يكون البائع في رأي نفسك قد سلبك بعضَ الدراهم بل شيئاً من القوة التي بها حَوْلُكَ وحيلتُك ومن الذكاء الذي تعامل الناس عليه وسلبك بعض الشأن الذي يجعلك رجلا ذا بصَرَ ومعرفة ؛ وعلى قَدْرِ ما يتحرك من ذلك في نفسك يتحرك من الغيظ والحقْد إن كنتَ رجلا داهيـةً ذكيا وبخاصةٍ إذا رأيت البائع لا يبالي أن تعرف أنه تَغَفَّلك بل يجعل من همّهِ أن تعرف ذلك. فلا تعود الدراهم أشـياءَ كما هي في نفسها من ضعف الخطَر والقيمة بل كما هي في نفسك مما وُضِعَ أمرها عليه ، فلا تنحطُّ قيمتها إلا بانحطاط قيمة النفس وتلتحق بمعاني القهر

والغلَبة وما كانت الا من بعض معانى الربح والخسارة .

وعلى هذا المثل يقاس أمر الحب ونكده وجنونه فما هو على قدر المرأة ولا بمقدار مما تعطيه ، وانما هو استخذاء المعانى الانسانية وخضوعُها لصفة حيوانية واحدة ينصرف كل مافي هذا الانسان اليها ؛ والأمر بعدُ كما قال أحد الأطباء في تعليل الجوع إذ قال : ان المعدة متى خَوَّتْ [١] وفرغت من طعامها الذي كان فيها بعثت أعصابُها الباطنة برسائلها العصبية الى ساقةِ المخ [٢] والى مركز الاعصاب في العمود الفَقْرِي تُؤْذِن بأنه صار من الممكن إرسال طعام آخر قال فتترجم مراكز الأعصاب السُّفلى هذه الرسائل الى جوع . وقل أنت مثل ذلك في القلب فانه متى وقعت امرأة من حاجته موقعاً ظَمِئ اليها فأرسل رسائله العصبية الى المخ بأنه من الواجب . . . إطفاء هذا الغليل المحرق فتترجم مراكز الأعصاب هذه الرسائل الى حب . . . وأنت أعلى عيناً [٣] بأن هذا كله نقلٌ للمعاني الحيوانية

(١) أي خلت والخواء (ويقصر) خلو الجوف من الطعام
(٢) الجزء الخلفي منه (٣) أي أبصر بذلك وأخبر

الى اللغة التي تحرك النفس فتُلجئها الى تسخير قواها في دفع الألم ان كان حقيقة أو خيالا . فاذا أضلَّكَ أمرُ الحب وضقت به وعجزت أن تَصرف القلب عن رسائله فاشغل العقل عن ترجمتها وأحْكِمْ معَاقِدَ هذه الخيالات ومَقاصدَها وازْدَرِ تلك الحيوانية وأبْقِ الدرهم على قيمته . . ولا تحسبَنَّ المرأة مُعطيةً أكثر مما فيها ولا تتوهمنَّ أحسن ما يبدو لك منها إذا سَحَرَتْ به على عينك إلا صورةً مسحورةً من أقبح ما فيك أنت . فان قرَّرْتَ في نفسك هذه القواعد وأجريتَ عليها ما يترجم لك العقلُ من رسائل القلب جاءك من هذه الرسائل الحكمةُ والفلسفة والكبرياء والأنفة أو الصبر والأناة ؛ وخُضت الغمرة(١) بذراعين فيهما السباحةُ والنجاة لا الاختباطُ والغرق

كذلك أوحت الىَّ روح الشيخ

« * »

في منطق الحِسّ متى وُجدت الأسباب جاءت النتيجة

---

(١) اللجة ومكان التيار

من تلقاء نفسها لأنها تدور مع أسبابها وجوداً وعدماً، فاحذف الأسباب تسقط النتيجة. ولكن الأمر عكس ذلك في منطق الحب. إحذف النتيجةَ تسقط الأسباب كلها فانك إن لا تفكر في لذة ترجوها أو تحرص عليها نسيك الحب قبل أن تنساه؛ وهل علمت قطُّ عجوزاً تُعشق لانها عجوز ليس فيها الا حُطامُ العمر أو عرفتَ إنساناً يَحْدُسُ عليها ظناً من ظنون الحب أو يصل بها سبباً من أسباب المطْمَعَة؟ أما إن هذهِ الفانية منطق سقطت نتيجته فلا يمكن في الطبع أن تقوم أسبابها. فاذا أنت محقتَ النتيجة وخيالها لم يبق بينك وبين المرأة ماسة[1] منك أو منها واستحالت الى منظر من مناظر الجمال يُفهمك أو يُلهمك أو يفسر لك فلا تنزل منها منزلةَ الرجل بل منزلةَ الفكر ولا تكون هي منك بمقام المرأة بل بمنزلة المعنى.

المصائب والنساء؛ من شقاء الشقيّ أن يبالغ فيهن؛ فان

---

(١) أي صلة وشابكة

ما يذلك من خوف المصيبة ليس منها ولكنه منك وما يُذهلك من حب المرأة ليس فيها ولكنه فيك ، فأنت من ذلك كالذى ينحت صنما من الحجر ثم يصله بمكان الرغبة والرهبة من نفسه فاذا القدرةُ كلها قد استفاضت عليه واذا الحجرُ الذى لا يملك ولا حشرَةً من حشرات الأرض قد تملك رجلا بعقله وقلبه وحواسه وحيّزه من الدنيا ، واذا هذا الرجلُ يتعبَّدُ بحقيقته لخياله و بعقله لوهمه وبعلمه لجهله وبما يَصدق فيه لما يكذب عليه ، ويبقى الحجرُ حجراً ولا يبقى الرجلُ رجلا . وكذلك يصنع عاشق المرأة بالمرأة وهى عند نفسه كأنما نبتَ جسمها على روح صنم معبود ؛ يحسب فيها السماء والجنةَ وما فيها أكثرُ من امرأة ويكون منها في الحب والرضا كحجر الألماس يلقى عليه الضوء لوناً واحدا فيخرجه من قلبه ألواناً ذواتِ عدد في بَريقٍ وبَصيص ، وفي البغض والنفرة كالجسم المحترق تحوّل كله ناراً من شرارة أو جمرة أو شعلة . وهو في كلتا الحالتين يُسرُّ ويألم بمادّته كلها لقليل طرأ عليه من مادتها هي ، فهي

من تلقاء نفسها لأنها تدور مع أسبابها وجوداً وعدماً ، فاحذف الأسباب تسقط النتيجة . ولكن الأمر عكس ذلك في منطق الحب . إحذف النتيجةَ تسقط الأسباب كلها فانك إن لا تفكر في لذة ترجوها أو تحرص عليها نسيك الحب قبل أن تنساه ؛ وهل علمت قطُّ عجوزاً تُعشق لانها عجوز ليس فيها الا حُطامُ العمر أو عرفتَ إنساناً يَحْدُسُ عليها ظنّاً من ظنون الحب أو يصل بها سبباً من أسباب المطْمَعَة ؟ أما إن هذهِ الفانية منطق سقطت نتيجته فلا يمكن في الطبع أن تقوم أسبابها . فاذا أنت محقتَ النتيجة وخيالها لم يبق بينك وبين المرأة ماسّة (١) منك أو منها واستحالت الى منظر من مناظر الجمال يُفهمك أو يُلهمك أو يفسر لك فلا تنزل منها منزلةَ الرجل بل منزلةَ الفكر ولا تكون هي منك بمقام المرأة بل بمنزلة المعنى.

المصائب والنساء ؛ من شقاء الشقيّ أن يبالغ فيهن ؛ فان

(١) أي صلة وشابكة

ما ينالك من خوف المصيبة ليس منها ولكنه منك وما يُذهلك من حب المرأة ليس فيها ولكنه فيك ، فأنت من ذلك كالذى ينحت صنما من الحجر ثم يصله بمكان الرغبة والرهبة من نفسه فاذا القدرةُ كلها قد استفاضت عليه واذا الحجرُ الذى لا يملك ولا حشرةً من حشرات الأرض قد تملّك رجلا بعقله وقلبه وحواسه وحيّزه من الدنيا ، واذا هذا الرجلُ يتعبّدُ بحقيقته لخياله وبعقله لوهمه وبعلمه لجهله وبما يَصدق فيه لما يكذب عليه ، ويبقى الحجرُ حجراً ولا يبقى الرجلُ رجلا . وكذلك يصنع عاشق المرأة بالمرأة وهى عند نفسه كأنما نبتَ جسمها على روح صنم معبود ؛ يحسب فيها السماء والجنةَ وما فيها أكثرُ من امرأة ويكون منها في الحب والرضا كحجر الألماس يلقى عليه الضوء لوناً واحدا فيخرجه من قلبه ألواناً ذواتِ عدد في بَريقٍ وبَصيص ، وفي البغض والنُفرة كالجسم المحترق تحوّل كله ناراً من شرارة أو جمرة أو شعلة . وهو في كلتا الحالتين يُسرُّ ويألم بمادّته كلها لقليل طرأ عليه من مادتها هي ، فهي

شيء واحد ولكنها بعادته تنقلب جمالاً ملءَ عينه وفتنةً ملء صدره وفكراً ملء عقله وكذا وكذا مع هِنٍ وهِنٍ وهِنَات [١]. انما هذه سبيل اللذات في الانفس المريضة التى تَزْدَلِفُ بما فيه لذتها الى ما فيه هَلَكتها ولا تُكسبها اللذةُ شعوراً الا لتسلبها شعوراً غيره ولا تَهيج فيها خيالا إلا لتطمس به على حقيقة ولا تبتَعث حرصا إلا لتغلب به على قَصْد ؛ فالخمر فيمن يُبتلى بها تسلب الشعور بفضيلة العقل لتُنشيء اللذاتِ الخياليةَ التي هي من بواعث الجنون ؛ والمال فيمن يحرص عليه يَستلب الشعور بفضيلة الخُلق ليحدِث له اللذات الوهمية التي هي من بواعث السقوط ؛ والمرأة فيمن يُمتحن بها تنتزع الشعور بفضيلة التمييز لتُؤْتيه اللذاتِ الغريبة التى يكون منها الجنون والسقوط، ضَرْب من هذا وضربٌ من ذاك . ولن تجد كلَّ جرائر الحب الا متفرعة من هذين الأصلين فهي بجملتها داخلة

(١) أي مع كذا وكذا وأمور أخرى مما يمكن أن يكون

في باب سلب العقل بعضه أو أكثره وفي باب سلب الخلق بعضه أو كله .

وفي النفس الانسانية لا عرض الحقيقة الا من سوء التخيل فيها . كأن نعمة الخيال انما وُهبت للانسان لتُخرجه من حدود الحقائق فيُفسدها ويفسد آثارها فيه فتنقلب من مادة شقائه وهي مادة سعادته . فالخيال هو القوة التي يثب بها الانسان الى المجهول ، وهو نفسه القوة التي يسقط بها اذا تقاصرت الوثبة أو طاشت وقلما جاءت إلا من هاتين ، والخيال هو العنصر الذي تمزجه بالحقائق ليُحدث فيها التنويع فيخرج ثلاث حقائق من اثنتين ، وهو نفسه العنصر الذي يستخرج الضرر الكامن في هذه الحقائق متى أسرف عليها فيُخرج من المنفعة الواحدة مضرتين للحقيقة وللانسان معاً

فالمَنْهومُ الذي ينتهي بطنُه ولا تنتهي نفسُه [1] ، والحريصُ الذي يفرغ عمره ولا يفرغ أمله، والفاجر الذي

(١) يمتلىء بطنه ولا يزال يشتهى

تذهب مُروءته ولا تذهب لذته ، والمُدْمِن الذى يسقط عقله وخياله لايزال يعلو ، والمقامر الذى لا ينفكُّ يطمع في الغنى وهو فقير حتى من الفقر .... (١) ؛ كل واحد من هؤلاء مريض بمرض خيالي واحد . أما الذى هو مريض بشيء من كل شيء فهو العاشق المريض بامرأة يهواها

وهل في شِقْوة الخيال وشدة غُلَوائه أعجبُ من خيال هذا العاشق إذ يرى الجمالَ المخلوق كله لا يبلغ مبلغ القُبلة الأُولى التي لا تزال في شفتي حبيبته لم تُخلق بعدُ ؟

المرأة في النساء امرأة ، كالواحد في العَدَد واحد ؟ بَيْدَ أن خيال العاشق يَرقم الى هذا الرَّقم الفَرد صفا طويلا لا يراه أحد غيره فالواحد اسمه واحد ومعناه ملايين كثيرة ....

وبهذا يصبح العاشق مع المرأة الخياليَّة كالنّسر حُطمت مخالبُه وصدِعَ مِنقاره ونُسِل جناحاه فاسمه نسر ومعناه دَجاجة.....

أُفٍّ للشعر يعلو بالأشياء كلها علوّ الأسرار الإلهية

(١) المراد أنه نزل من العدم والحاجة منزلة قد يكون فقر الفقراء عندها شيئا يسمى يسرا

التي فيها ، ويعلو بالشاعر على كل الناس إذ كان فيه من رُوح الله أكثرُ مما فيهم ، ثم لا يكون عقابَه على هذا التألُّه الا أن يَرمي بصاحبه من فوق سماواته تحت قدمي امرأة ان كان في الشاعر روحُ رجل تامٍ ، أو بين سَفِلَة الخلق وسَفَاسِفِ الأشياء ان كان الشاعرُ مؤنثَ النفس أو ساقطَها

آه آه : إن الله لا يُنعِّم قلباً في الدنيا على أسلوب النعيم في الآخرة ولكنه ترك للناس أن يعذّبوا أنفسَهم هنا على نحوٍ مما هنالك ، فكلما طَفِئَتْ لهم نار أو قدوا غيرها يحتَرِقُون فيها ليذوقوا العذابَ لا ليموتوا

إن لنار الآخرة سبعةَ أبواب وكأن كل باب منها ألقى جمرةً على الأرض ، فبابٌ ألقى الوهمَ وآخرُ قذف الخوفَ وثالث رمى بالطمع والرابعُ بالحرص والخامسُ بالألم والسادسُ بالبغض. أما السابع فرمى بالشرّ الذي يجمع هذه الستةَ كلها وهو الحب

النار في الآخرة ولكن أرواحَها في الناس لتسُوق أرواحَ الناس اليها

خطأ وصوابه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٧	١٢	قُروي	قَرَوي
٥٣	٦	والانخذال	والخذلان
٥٩	٤	في روح إما الرجل الخصبُ	في روح الرجل إما الخصبُ
٧٦	٨	من لدتك	من لذتك
٩٢	١٠	ما يخاض اليه	مالا يخاض اليه
١١٥	٣	لا يمن	الايمان
١٢٥	٣	وكان الرجل	وكأن الرجل
١٤١	٦	المرأة تصير القبيحة	تصير المرأة القبيحة